دعوة الحق

الدعوة والدعاة

مسئولية وتاريخ

الشيخ أبو الحسن الندوي

السنة السابعة - العدد ٨٠ - ذو القعدة ١٤٠٨هـ - يوليو ١٩٨٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

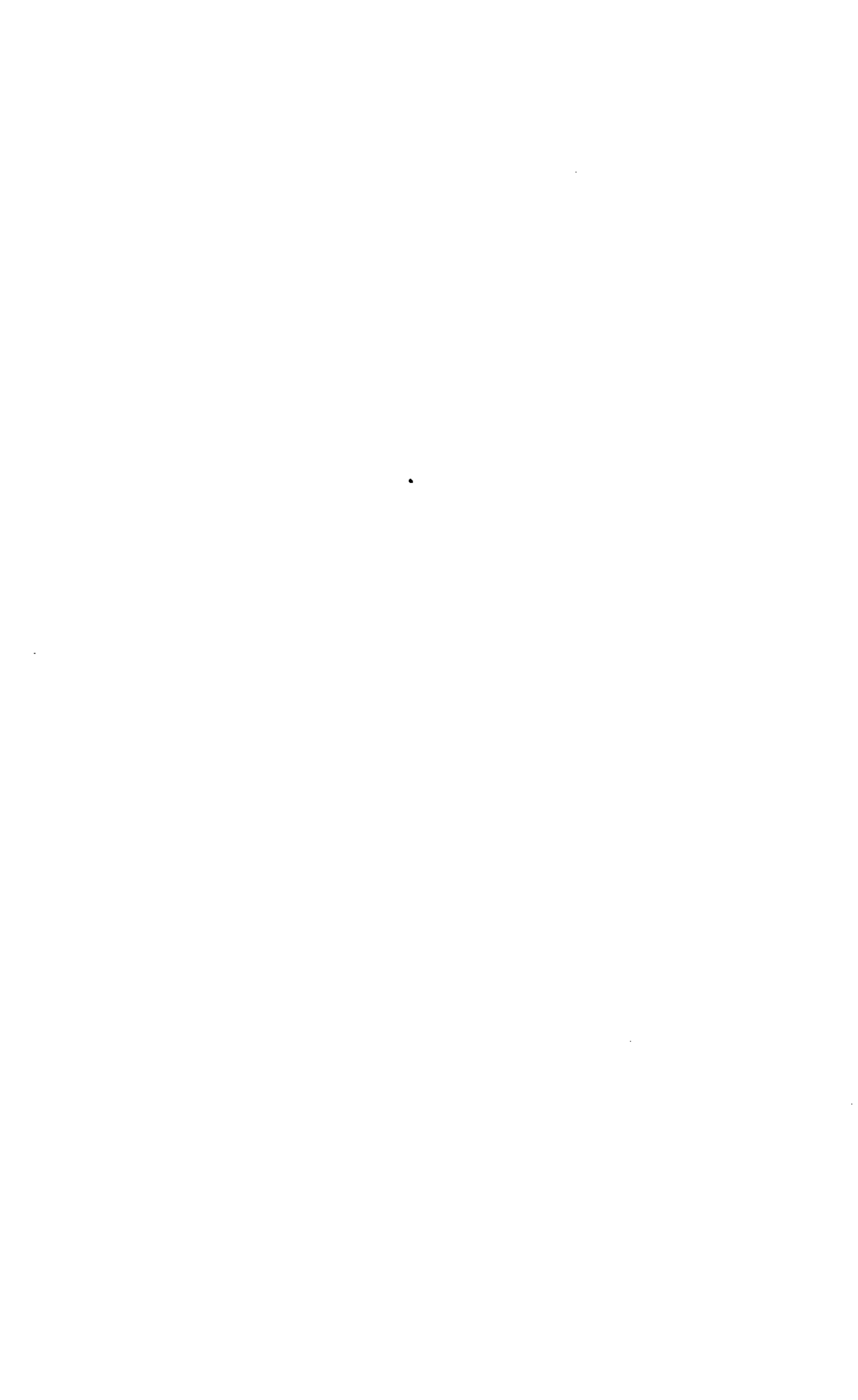
مقدمــة

سماحة الأستاذ أبو الحسن على الحسنى الندوى الأمين العام لندوة العلماء بالهند ، علم من أعلام الفكر الإسلامى لا يحتاج إلى تقديم ولا إلى تعريف .. فقد عرفه المسلمون وبخاصة طلاب العلم من الشباب ورجال التربية والتعليم والاعلام فى العالم الإسلامى .. بل فى أوروبا وأمريكا أيضاً .. عرفوه بفكره النيِّر ، وعلمه النافع ، ودعوته الرشيدة ، واخلاصه فى التوجيه والنصيحة .

وهذه ثلاثة نماذج من أحاديثه القيمة ، ومحاضراته النافعة عن أصول الدعوة الإسلامية ، وعن واجبات الدعاة ومسؤولياتهم ـ نقدمها فى كتاب واحد من سلسلة «دعوة الحق» التى تنشرها رابطة العالم الإسلامى شهرياً .

ما أحوج كل من يتصدى للدعوة الإسلامية تربية وتعليماً وإعلاماً ووعظاً وارشاداً : ان يلم بهذه الحقائق التى أوضحها أستاذنا الجليل أبو الحسن الندوى ـ حفظه الله ورعاه ، وسدد خطاه ، وأمده بعونه وتوفيقه .

أحمد محمد جمال



الفصل الأول

الدعوة الاسلامية فى العصر الحاضر



الدعوة الاسلامية فى العصر الحاضر

جبهاتها الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية (1)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

وبعد ! فانى أحمد الله تعالى ـ وأشكر على من يرجع إليه الفضل وله نصيب فى ذلك ـ على إتاحة هذه الفرصة الكريمة للتحدث فى موضوع الدعوة إلى قادة الفكر ، والمسئولين عن الجمعيات والمنظمات الاسلامية ، والعاملين فى مجال العمل الاسلامى ، وذلك فى مهد الدعوة الأول ، ومبعث الرسول ﷺ فى البلد الأمين .

وحق لى أن أنشد البيت العربى القديم مخاطباً لنفسى :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى
فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

إن موضوع الدعوة أيها السادة ! موضوع مطروق معالج كثرت عنه الأحاديث وازدحمت فيه الكتابات والبحوث خصوصاً فى

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة فى مؤتمر الدعوة والدعاة الذى عقدته رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٨هـ .

الزمن الأخير ، وتكونت فيه مكتبة ذات قامة وقيمة[1] ، فأريد أن أحدد بحثى فى الحديث عن جبهات الدعوة الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية ، المقررة لمصير العالم الاسلامى ، فضلاً عن مسيرة الدعوة ، وأركز على النقاط المختارة العلمية (فى ضوء دراساتى القاصرة ، وفى ضوء الواقع وتجارب الماضى) ، لحماية الأقطار الاسلامية من التحديات والفتن ، وبالله التوفيق .

١ ـ تحريك الإيمان فى نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الدينى فيها ، فإن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمسها له ، هو السور القوى العالى الذى يعتمد عليه فى بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات وحكومات العالم الاسلامى فى حظيرة الاسلام ، وهى مادة الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التى تستخدم لأى غاية نبيلة ، وهى من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفة ، واخلاص .

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التى تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات ،

---

(١) وقد صدرت من قلم المحاضر كتب ورسائل ومحاضرات فى هذا الموضوع ، منها :
١ ـ سلسلة «رجال الفكر والدعوة فى الإسلام» (١ ـ ٤) ، ٢ ـ «روائع من أدب الدعوة فى القرآن والسيرة» ، ٣ ـ «الدعوة الاسلامية فى الهند وتطوراتها» ٤ ـ «حكمة الدعوة وصفة الدعاة» ، ٥ ـ «الدعوة إلى الله ، وحماية المجتمع من الجاهلية ، وصيانة الدين من التحريف» ٦ ـ «منهج أفضل فى الاصلاح للدعاة والعلماء» ٧ ـ «دور الجامعات الاسلامية المطلوب فى تربية العلماء وتكوين الدعاة» .

والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، واخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كل أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية . والتقاليد غير الاسلامية ، وعكس النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التى استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التى نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدمار .

هذا مع تنمية الوعى الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرر مآسى وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها فى الوعى الدينى والعقل الإيمانى .

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الاسلامية من التحريف ومن اخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الاسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة فى «تنظير الاسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرهة والنظم الانسانية ، لأن هذه الحقائق الدينية هى أساس للاسلام الدائم ، والأصل الذى منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفى سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية .

الحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والايمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف فى المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلى والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الاسلامية ، فإن ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوى إلى المنهج الجديد السياسى .

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بالنبى ﷺ والحب العميق له ، الذى يؤثره على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء فى الحديث الصحيح ، والايمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل ، والحذر من كل العوامل والمؤثرات التى تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، وإضعافه على الأقل وتحدث جفافا فى الشعور ، وضعفاً فى العمل بالسنة ، وتجرؤاً فى القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه ولعل البلاد العربية (بفعل أحداث ، ودعوات قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفى لغتها نزل القرآن ونطق الرسول .

٤ ـ إعادة الثقة فى نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والاعلامية فى البلاد والحكومات الاسلامية بصلاحية الاسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر وتطوراته

وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشرى إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة ، وانقاذ المجتمع البشرى من الانهيار والانتحار الذى تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس «بطارية» قد نفذت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التى هى كسفينة نوح ، لا ينجو إلّا من ركبها .

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة فى أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسئول عن كل تصرفاتها وسبب الردة الفكرية والحضارية ، والتشريعية التى تكتسح العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وتعانى منه الشعوب المسلمة ـ التى لا تفهم إلّا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلّا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسع بين القيادات والحكومات والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذى يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فى ما لا يعود على الأمة بفائدة .

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد فى العالم الاسلامى ، رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً اسلامياً جديداً ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الالحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً مادياً ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلق

وصراع دائمين ، ولا يصلح نظام التربية والتعليم اصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الاسلامى على قدميه وبراسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الاسلامية فى الحكومة والادارة ، والتربية والاعلام والمجتمع ، فتمثل الحياة الاسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الاسلامى بسماته وخصائصه .

٦ ـ حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الاسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ فى العلوم الاسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن ، أن الفقه الاسلامى وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها فى العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة التى لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها فى يوم من الأيام ، وهى تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدى الناس .

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور فى أعماق النفس الإنسانية وفى مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة ـ التى نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان فى صياغتها نصيب كبير للذوق الدينى الخاص وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها فى إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيقة ، وفصل حاضرها

عن ماضيها ، فلا بد للحكومات الاسلامية والمجتمعات الاسلامية من التخطيط المدنى الاسلامى المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بد من تمثيل الحضارة الاسلامية فى عواصمها وفى دوائرها ، وفى بيوتها ، وفى مجتمعاتها ، وفى فنادقها ومنتزهاتها ، وإلى حد فى مكاتبها وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الاسلامى نموذجاً للحياة الاسلامية والمثل الاسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوة صامتة للإسلام .

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور فى العالم الاسلامى ، حضارة قوية عصرية ، مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى ، والرحمة والعدل فى جانب ، وعلى القوة والانتاج ، والرفاهية ، وحب الابتكار فى جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غرب وشرق ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميل وقرين ، إن كان فى حاجة إلى أن يتعلموا منه كثيراً فهو فى حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب .

٩ ـ إقناع الحكومات ـ فى بعض البلاد الاسلامية التى مثلت دوراً رائعاً فى تاريخ الدعوة والحضارة الاسلامى ـ المشغولة بحرب إبادة للعنصر الاسلامى ، أو عملية «تطوير للإسلام»

وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح فى بلد إسلامى ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وامكانياتها إلى عدو مشترك ، وإلى ما يقوى البلاد والأمة .

وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الاسلامية ، وتهيئة الجو المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادة وبركة ونصر من الله ، وسعى لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الاسلامى ، والتعاون على البر والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الامامة العامة ، أو الخلافة الاسلامية التى كلف بها المسلمون وسيحاسبون عليها .

١٠ ـ أما بالنسبة إلى البلاد غير الاسلامية ، فالقيام بالدعوة إلى الاسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الاسلام وروح العصر ، أما البلاد التى فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الاسلام ، والحياة الاسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوى القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسئولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقى ، والخواء الروحى ، والتدهور الاجتماعى الذى تعرضت له هذه البلاد ، حكومة وشعباً ، حتى يتهيأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغى والقيادى فى هذه البلاد .

١١ ـ وأخيراً لا آخراً هو ما تفرضه طبيعة الاسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة ، والأوضاع السائدة ، هو وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، فى العالم الإسلامى ، تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلو الهمة وبعد الور والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التى تملكت زمام قيادة البشرية وأصبحت تتحكم فى مصائر الشعوب والأقطار الاسلامية وغير الاسلامية ـ من غير حق ومبرر ـ وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة القوية ، وثقتهم بفضل الاسلام وحاجة البشرية إليه .

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدعوة الاسلامية بروح التضحية والبطولة والجلادة والتقشف والقدرة على المغامرات ـ إن كان لا بد منها ـ فإن الناس مازالوا مفطورين على تقدير الإيمان القوى ، والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ ، والاستهانة بالمادة واللذة ، والعزة ، وروح المخاطرة ، وعلى الاجلال لشىء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوى والفقير مفطور على احترام الغنى ، والأمى مفطور على احترام العالم ، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، ولأن تاريخ الاسلام ملىء بالبطولات والاقدام ، ولأن الواعين والمتتبعين لواقع الأمم والبلاد ، وأصحاب الضمائر الحية قد سئموا وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية وأصبحوا يمقتونها ويكرهونها كرهاً شديداً .

إن وجود هذا الفراغ ـ عدم وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، ومجتمع قوى سليم من أدواء العصر الحديث والحضارة المادية

الراعنة ، يقوم على تعاليم الاسلام وقيمه ومثله ـ خطر كبير على الوجود الاسلامى ، وعلى العقيدة الصحيحة والحياة الاسلامية ، فإن وجود الفراغ فى شيء ضرورى وفى مصلحة بشرية شيء غير طبيعى لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يسبب ذلك نشوء حركة منحرفة زائفة ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبية هادمة مدمرة ، ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات ، وللتاريخ العام ، أنه إذا وجدت هذه الحركة المنحرفة واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات ، وبالتقشف ومظاهر الزهد وهتافات التحدى للطاقات الكبيرة ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها ، بشجاعة وصمود ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة فى بعض أجزاء العالم الاسلامى التى لا تتفق مع تعاليم الاسلام وقيمه ومثله ـ ولو كان فى ذلك نصيب كبير من الدعاية والمظاهرة ووسائل الاعلام الجبارة ـ كان له سحر على النفوس ـ خاصة فى أوساط المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، المتألمين من الواقع المرير الذى تورطت فيه بعض المجتمعات الاسلامية ـ سحر لا يبطله وعظ واعظ ، أو مقال لكاتب ، أو استدلال منطقى أو بحث علمى ، يشهد بذلك تاريخ الخوارج فى القرن الاسلامى الأول ، وتاريخ الباطنية والفدائيين فى القرن السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن الصباح وما كان يجرى فى مركزه قلعة «الموت» وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التى ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الاسلام والاصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرة ، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التى استطاعت أن تجند ألوفاً من الشباب فى تحقيق مآربها السلبية وأهدافها الخطيرة ، يضحون بحياتهم فى سبيلها

متطوعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الاسلامية والحالمين لمجد الاسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقداً بريئاً جريئاً فى ضوء النصوص القرآنية المنتحلة للإسلام .

ويعرف قادة المسلمين ومفكروهم ، أن السيل لا يمسكه إلّا سيل مثله ، والتيار لا يدفعه إلّا تيار أقوى منه ، وواقع العالم الاسلامى ـ ومعذرة ـ اليوم فى الجمود والاستنامة والاخلاد إلى الراحة ، وعدم وجود دعوة إيمانية قوية ، وروح التضحية والفداء فى سبيل العقيدة الصحيحة ، والأهداف الصالحة ، وعدم اكتفائهم العسكرى والفكرى ، نذير خطر دائماً ، وممهد الطريق للوقوع فى شبكة هذه الدعوات المنحرفة الزائفة التى يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية طلبتهم ومنشودهم ، وما يرضى طموحهم ويزيل قلقهم ، وإن كان ذلك «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه»[1] ولكنها نفسية الإنسان وتجربة الأمم ، والحقيقة الأليمة التى يجب أن ينتبه لها كل معنى بحاضر الاسلام ومستقبله ، وسلامة العقيدة وصحة التفكير ، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه .

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى الذى خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين التى حثها على المؤاخاة وربط بها مصير العالم والانسانية :

﴿إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾[2] .

صدق الله العظيم .

---

(١) سورة النور آية ٣٩ . (٢) سورة الأنفال آية ٧٢ .



الفصل الثانى

الدعوة الاسلامية فى الهنـــد



كيف انتشر الاسلام فى الهند[1]

تأسست الدولة الاسلامية فى الهند فى القرن الخامس الهجرى واحتضنت العلم والدين ، وقصدها العلماء والاشراف من أقصى العالم الاسلامى ، وأوى إليها كل من نبأ به بلده أو ضاقت عليه أرضه ، واجتمع فيها آلاف من أهل الدين والعلم نزحوا من بلادهم فى فتنة التتار ، وقصدها أهل الهمم العالية والنفوس الكبيرة من المجاهدين والدعاة ، باشارات غيبية ومبشرات صادقة ، أو برغبة فى الجهاد ونشر الدعوة الاسلامية ، فنشطوا فى الجهاد والدعوة ، وانتشر الاسلام بسرعة غريبة بتأثير أخلاقهم الطيبة وشخصيتهم القوية ، وقد أسلم مئات آلاف من الوثنيين على يد الشيخ معين الدين الجشتى (م ٦٢٧هـ) فى أجمير وما جاورها من البلدان ، وأسلم آلاف فى بنجاب على يد الشيخ اسمعيل اللاهورى (م ٤٤٨هـ) والشيخ فريد الدين الأجودهنى (م ٦٦٤هـ) وأسلمت كشمير كلها على يد السيد على بن الشهاب الهمدانى (م ٧٨٦هـ) .

الدولة الروحية بجوار الدولة المادية :

ولما أصاب الدولة الاسلامية ما أصاب شقيقاتها فى الشرق كله من الترف والبذخ ، وأصبحت لا تمثل من نواحى الحياة الاسلامية وواجبات الحكومة الاسلامية إلّا الناحية المادية ، ولا تهتم إلّا بجباية الأموال وتعيين العمال ، وارتفعت الحسبة ، وركبت الحكومات

(١) ألقيت هذه المحاضرة فى حفل تكريم أقامته جمعيات الشبان المسلمين فى مصر سنة ١٣٧٠هـ ، ١٩٥١م احتفاء بسماحة المحاضر.

رأسها ، وطغت المادة ، أسس رجال الدين دولاً مستقلة فى جنب هذه الحكومات ، كانت أعظم سلطاناً ، وأعمق نفوذاً من هذه الحكومات ، واستقلت هذه الدول الروحية بالناحية الروحية والخلقية ، وكان القائمون على هذه الدول يحكمون القلوب والأرواح ، وكثيراً ما شوهد أن الملك كان يحكم على البلاد كلها ويحكم عليه وعلى بلاطه وأزواجه وأولاده وبطانته رجل من الصالحين قد لا يجد قوت يومه وقد يكون دواب هذا الملك أشبع وأنعم عيشاً منه ، وقد شوهد فى بعض الليالى المظلمة أن السلطان شمس الدين الأيلتمس (م ٦٣٣هـ) الذى دانت له البلاد كلها وخضع له ملوك الهند عن آخرهم يستفتح باب الشيخ قطب الدين بختار الكعكى لعله نام على طوى ويسلم عليه مملوك على ملك ثم لا يزال يغمز رجله ويكبس بدنه ويذرف الدموع على قدميه حتى يسليه الشيخ ويبشره ويأمره بالانصراف ، وقد طلب علاء الدين محمد شاه الخلجى وهو من أعظم ملوك زمانه من الشيخ نظام الدين الدهلوى (م ٧٢٥هـ) أن يأذن له بالحضور فأبى ، وكان مع ذلك تأثيره فى المجتمع الهندى الاسلامى وفى رجال الحكومة وحاشية الملك وهم القدوة فى البلد عميقاً وواسعاً ، وقد أصبح الدين شعار الناس الذين لهم اتصال بالشيخ وعمرت المساجد وقلت المنكرات وفشت الأمانة والصدق والنصح فى التجار ، وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والذنوب وازدحم المبايعون على بابه ، إلى غير ذلك مما حكاه المؤرخ البرنى فى تاريخه وكان له ولخليفته الشيخ نصير الدين محمود الأودهى نوع إشراف دينى ـ على اعتزالها عن الدولة ـ على الحكومة الاسلامية وكان اختيار الملك الصالح فيروز تغلق وهو

من أفضل ملوك الهند وأرشدهم للملك ومبايعة الناس بتوجيه الشيخ وترشيحه وكان قد وعده بالدعاء له لطول الحكم والتوفيق إذا قام بالعدل ونصر الاسلام ، وكان عهده من أزهر العهود الاسلامية وأنضرها فى الهند .

صلة الملوك بالشيوخ وإجلالهم لهم :

وكان الملوك يعتزون بدعاء هؤلاء الفقراء ويتفاءلون بكل ما ينطقون به ، فما حكاه المؤرخ الهندى محمد قاسم صاحب (تاريخ فرشته) أن السلطان اسكندر بن بهلول اللودهى (م ٩٢٣) كان فى ناحية بعيدة عن دهلى فلما أخبر بوفاة أبيه وأنه بويع بالأمارة قصد شيخاً صالحاً فى ذلك البلد لم يعلم عن الحادث شيئاً ، وطلب منه أن يقرأ عليه العلم ، ورضى الشيخ بذلك ، وجاء الملك بكتاب «الميزان» وهو أول كتاب يدرس فى علم الصرف وأوله «إعلم أسعدك الله فى الدارين أن الكلمة ثلاثة أقسام» وطلب من الشيخ أن يقرأ فيتبرك بذلك ، فقرأ الشيخ «إعلم أسعدك الله فى الدارين» وما عنده فكرة عن غرضه ، فاستعاده الملك ثلاث مرات والشيخ يردد قول المصنف «إعلم أسعدك الله فى الدارين» . وبعد ذلك أطبق الملك الكتاب وقال : لقد نلت بغيتى فما كان قصدى التعلم وقد تعلمت ما فيه كفاية ، وإنما أردت أن يدعو لى الشيخ بالسعادة فى الدارين وقد كان ذلك ، فحسبى من هذا الدرس هذا الدعاء الذى أثق بأنه مستجاب إن شاء الله . وقد كان هذا فعلاً ، والحديث بالحديث يذكر فقد كان هذا الملك من أعظم سلاطين الهند ، وقد كان عهده من أزهر العهود الاسلامية ، ملكاً وديناً وعلماً ، وأيمنها ، ومما

يستدل به على سعادته ورشده وسلامة قلبه وصلاحه أنه لما سار إلى جونبور لاخماد الفتنة التى أحدثها أحد ملوك المسلمين دعا له بعض العلماء بالنصر والفتح ، فتغير لونه وظهرت الكراهة فى وجهه ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الفريقان من المسلمين فلا محل للدعاء لفريق بالنصر والظفر ، فإن ذلك يستلزم انكسار الفريق الثانى ووقوع المقتلة فيه ، وذلك مما يجب أن يحزن له المسلم ويمتعض منه ، بل يجدر فى ذلك المحل أن يدعى بالصلح والاتفاق ، ومما يعرف به مقدار حفاوة الملوك بالعلماء والصالحين وإيثارهم على أنفسهم أن الشيخ شهاب الدين الدولة آبادى صاحب تفسير (البحر المواج) لما مرض واشتد به الوجع فى جونفور قاعدة البلاد الشرقية ، عاده السلطان إبراهيم الشرقى (م ٨٤٠هـ) ودعا عند رأسه أن يكون فداءاً له فيموت ويعيش الشيخ زمناً طويلاً لأنه جمال وبركة زمانه .

سر خضوع الملوك للشيوخ والدعاة وسيرتهم :

وهكذا كان رجال الدين وعباد الله الذين تجردوا عن الشهوات وطلب الجاه والمال وزهدوا فى ما عند الملوك فخضع لهم الملوك وأتوهم صاغرين ورفضوا الدنيا فجاءت راغمة تخدمهم ، وكان هؤلاء الشيوخ يقومون على الدولة الروحية وإدارتها بنشاط وتيقظ أعظم من نشاط الملوك وسرهم على مصالح بلادهم وإدارتها ، وقد كان الواحد منهم يشرف على الحياة الدينية والحياة الخلقية فى طول الهند وعرضها ، ويرسل الدعاة وينصب المعلمين والمصلحين ، ويملأ الثغور ويضبط الأطراف ويراقب سير الحكومة ويكافح المادية

الطاغية ويقاوم التيارات الجارفة .

فتنة أكبر والخطر الأكبر على الاسلام فى الهند :

استمر الحال إلى فجر القرن الحادى عشر الهجرى ، وقد تولى عرش المملكة الاسلامية الهندية السلطان جلال الدين أكبر ، وهو ملك أمى لم يقرأ ولم يكتب ، وقد ولد ونشأ وأبوه همايون بن بابر فى حالة الفر من مكان إلى مكان يطارده منافسه فى الملك شير شاه السورى ، فنشأ الولد ـ وارث الدولة التيمورية العظمى ـ مهملاً لم يتلق شيئاً من العلم والتربية ، ورزق عقلاً كبيراً وهمة وثابة ، وجلس على عرش أبيه وهو شاب فى مقتبل العمر وعنده رغبة جامحة فى الدراسة والبحث ، فجمع حوله عدداً كبيراً من العلماء والتف حوله علماء الدنيا بطبيعة الحال ، وكان مولعاً بمطارحة العلماء ومناظرتهم ، وطمع العلماء فى رفد الملك وصلاته وتنافسوا فى إرضائه وسروره ، كل يريد أن يستأثر به الملك ويحله فى نفسه المحل الأرفع ويطلق يديه فى المملكة والأموال ولم يكن عندهم شىء يثبتون به براعتهم وتفوقهم إلّا هذا العلم الذى يحملونه والدين الذى يدينون به ، فأجروا خيلهم فى هذا الرهان ووضعوا علمهم فى الميدان ، وتناقروا كالديكة ، هذا يغزل وذلك ينقض ، وهذا يثبت وذلك يرد ، والملك يستمع وينصت إلى مناظراتهم الدينية ومباحثاتهم العلمية وهو أمى لا يستطيع أن يحكم ويستقل بفكرته ، فنشأت عنده الشكوك وتزعزعت العقيدة واضطرب فى الحقائق الدينية اضطراباً عظيماً وأصبح يشك فى الحقائق الدينية ، ثم رأى من أخلاق العلماء وممثلى الدين وحبهم للجاه ونهامتهم للمال

وتحاسدهم وتباغضهم ما أساء ظنه بالعلماء أولا وبهذا الدين الذى يمثلونه ثانياً ، فهذا رئيس القضاة يموت فيخرج من بيته لبنات من ذهب كان قد اكتنزها ، وهذا المحدث كان يكيد لمنافسه ويدبر مؤامرة عليه ليسقطه ويهينه ، إلى غير ذلك ، وكان الملك مرهف الحس قوى العاطفة ، سريع الحكم ، فحكم على هذه الجماعة بالفساد وأقصاها وأقصى معهم الدين .

بطانة سوء من العلماء :

ثم زاد الطين بلة أن حظى عنده أخوان من أسرة علمية كبيرة ومن كبار أذكياء العصر ونوابغ الوقت وهما أبو الفضل المؤرخ الأديب صاحب (آيين أكبرى) وأبو الفيض فيضى من كبار شعراء الفارسية ومن المتضلعين فى العلوم العربية صاحب (سواطع الالهام) التفسير غير المنقوط فى اللغة العربية ، وكانا غريبى الأطوار فيهما شذوذ علمى وقد لقيا من علماء عصرهما من الازدراء وعدم الاحتفال ومن المجتمع من الانصراف والأعراض ما أثار فيهما روح الانتقام والغضب وحلا من نفس الملك محلاً لم يحله أحد لذكائهما الباهر وشعرهما الرقيق وأدبهما الرفيع ودراستهما الواسعة ، وكان أب الفيض أقربهما إلى الملك وألصق الناس به فسول للملك الدعوى بالاجتهاد المطلق وأنه صاحب دورة جديدة وأن عصر نبوءة محمد ﷺ قد انتهى على هذا الألف وبدأ عهد إمامة السلطان أكبر فأعلن نسخ نبوة محمد ﷺ وانتهاءها وفاتحة عصر جديد للسلطان فيه الكلمة النافذة والأمر المطاع .

معـاداة الاســـلام :

ثم ظهرت له فكرة التقريب بين الأديان ليتفادى الخلاف بين الديانات وتجتمع الهند كلها تحت لواء واحد وعلى دين واحد ، فلفق الديانات وابتكر مزيجاً غريباً من الطقوس والعبادات والشعائر الدينية المختلفة . فكان يتعبد على طريق براهمة الهند ويتقلد الخيط علامة لهم ويولى وجهه إلى الشمس ، ويرطن بكلمات تقديس لها ، ولم يزل ـ بتأثير محيطه ـ يبتعد من الدين الاسلامى ويقرب ويمتزج بالبراهمة خاصة حتى نشأ عنده شبه عناد للدين الاسلامى وبغض له ولشارعه . فكان يسوؤه أن يسمى أحد فى بلاطه إبنه محمداً ، وحرم ذبح البقرة فى طول الهند وعرضها ، وأباح الخمر والخنزير ، وأصبح الاسلام غريباً مطارداً فى بلاد استمرت فيها الحكومة الاسلامية خمسة قرون فى عهد رجل يتسمى بالاسلام وينحدر من سلالة مسلمة لها غيرة على الاسلام ، وهكذا اتجهت الهند كلها إلى الاباحية والفكر وكادت جهود القرون المتطاولة ودماء النفوس البريئة تضيع وتذهب سدى .

حاجة التجديد إلى عبقرى :

كان خطب الهند والاسلام أعظم من أن يقوم له الأقزام من رجال الدين والمنتسبين إلى العلم ، فليست المسألة مسألة أفراد وجماعات ، أو مسألة بدع وخرافات ، إنما هى مسألة انحراف دولة من أعظم دول الأرض ، على رأسها رجل من أكبر ملوك العصر ، وحوله رجال من أعلم رجال الوقت ومن أذكاهم ، إنها خطة مدبرة ومؤامرة محكمة على الاسلام يبيتها أقوى الناس وأقدرهم ، إن

الانقلاب الديني كان يطلب رجلاً عملاقاً في العلم والشخصية وفي العقل والمواهب ، إنه كان يحتاج إلى عبقري عظيم ومجدد كبير يتجرد لمقاومة هذا التيار العنيف الجارف فيحوله من جهة إلى جهة ويغير مجرى التاريخ .

الامام أحمد السرهندى :

إن لله فى دينه شئوناً ، ومن شئونه أن يخلق لكل عصر ، رجلاً من رجال الاسلام ، ولكل غرض سهماً من السهام التى لا تطيش ، فإن الله قد تكفل بحفظ هذا الدين القويم والذكر الحكيم ، لقد وجد هذا المصلح فى شخص رجل يقال له (الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندى) تخرج فى علوم عصره كما تخرج أكبر عالم ، وبرع فيها ، وجمع إلى كفايته العلمية ودراسته المتقنة تربية الروح وتهذيب النفس والاخلاص لله ودوام الذكر وحضور القلب ، تخرج فى ذلك على شيخ كبير من شيوخ الطريقة النقشندية الشيخ عبدالباقى البدخشى نزيل دهلى ، واستعان به أبو الفيض (الفيضى) فى ما التوى فى كتاب (سواطع الالهام) فرأى عنده القريحة الوقادة والعلم الحاضر ، وعرضت عليه المناصب فى الدولة فرفضها لأنه لم يخلق ليشارك فى إدارة هذه الدولة الجائرة إنما خلق ليقومها أو يكسرها ـ إذا لم يستطع أن يقومها ـ وينشىء منها دولة إسلامية جديدة .

رأى الشيخ أحمد اتجاه الدولة ومعاداتها للدين ومحاولة القضاء على الاسلام فى هذه البلاد ، فاهتزت مشاعره ، وتكدر صفو حياته وطار نومه ، وملكت هذه الفكرة عليه شعوره وعقله ،

وأصبح لا يفكر إلّا فى إصلاح الحال ، والرجوع بالدولة إلى وضعها الاسلامى والمحافظة على مستقبل الاسلام فى هذا القطر العظيم .

الخطر فى الثورة العسكرية :

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ولا أمل فى انجاح الثورة ، فهو رجل فريد وحيد لا يملك إلّا قلبه وقلمه ، ولا أمل فى الانقلاب العسكرى فالدولة شابة فتية لم يصبها شيء من الهرم والضعف بل قد توسعت وتوطدت فأصبحت إمبراطورية عظيمة وهى الامبراطورية الثانية التى عرفتها الهند بعد امبراطورية أشوكا ، وقد كسب الامبراطور أكبر ود أمراء الهند وإقبالها بتزوجه فيهم وتقريبهم إلى نفسه ، فأصبحت دولة راسخة مشيدة البنيان موطدة الأركان ، لها وزراء من كبار راجبوت ، وجيش قوى من أقوى جيوش العالم وأحسنها تدريباً ونظاماً ومالية عظيمة ، فكيف يقاوم هذه الدولة المنظمة وكيف يؤدى رسالته ويقوم بمهمته ؟ إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة فكيف بفرد فقير يسكن فى قرية ..!

من أين يبدأ الاصلاح ؟

ولكن الشيخ أحمد صمم على أداء رسالته ، واهتدى فى تفكيره المخلص المجهد إلى نقطة مهمة وهى نقطة الفتح ، إن الملك قد أفسده المفسدون فثار على الدين وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، وقد كتب عليه الموت ، وهو خاضع للسنن الألهية ، فيموت ويخلفه غيره ، فلابد أن أؤدى رسالتى وأتصل ببلاطه وأركان دولته ، ولا موجب للقنوط

من الفطرة الانسانية فالصلاح فيها أصيل ، والفساد عليها طارى ، فلأجرب ولأحاول . وإن الله ناصر من نصره وخاذل من خذله .

الأسلوب الحكيم :

جرد الشيخ أولاً نفسه وفكره من كل أمل وطمع فى ما عند هؤلاء من مال ونشب وعز وجاه ، وركز فكره على الاصلاح والنصيحة حتى رأى أن ما عندهم من دنيا لا يساوى فى نفسه إلّا جيفة عليها كلاب ، ثم اتصل برجال البلاط الملكى وأركان الدولة وتعرف إليهم ، فإذا هم يجلونه ويحلونه من نفوسهم محلاً لا يحلونه المتملقين والمتزلفين ، ويعرفون أن هذا الرجل من طراز آخر غير الطراز الذى جربوه ، ان هذا رجل قد تمرد على المادة ، وتمرد على المجتمع ، وخرج من سلطان المطامع والشهوات ورأوا فيه من قوة النفس والحرية ومعانى الإنسانية السامية ما لم يروه فى نفوسهم ، ورأوا أنفسهم أقزاماً لا يتطاولون إلى إنسانيته الرفيعة ورجولته الشامخة ، فخضعوا له كما يخضع كل صغير للكبير ، وكل فقير للغنى ، وتضاءلوا أمامه كما تتضاءل الكثبان والربى أمام الطود الشامخ والجبل الناطح للسحاب .

وهنا يقع بالسلطان أكبر حادث الموت ، ويخلفه إبنه جهان كير وهو يحمل للشيخ من التقدير ما لم يكن يحمله هو . ولكن بلاطه لا يخلو ممن يضمر للشيخ العداء ويحسده ، فدبروا له المكيدة ، وزينوا للملك أن يطلبه ويمتحنه ، وحضر الشيخ فعلا ، وكان من العادات المتبعة أن كل من يدخل على الملك يسجد له تحية ، فامتنع الشيخ وحياه بتحية الاسلام ، فثار ثائر الملك وسجنه فى معتقل كواليار ،

ولبث فى السجن بضع سنين ، يشتغل بالعبادة ويدعو المسجونين إلى الاسلام ، فأسلم على يده ـ كما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ـ مئات من المسجونين.

ثم ظهرت للملك براءة الشيخ وعلو منزلته ، فأطلقه ودعاه وأكرم مثواه ، وقضى الشيخ شهر رمضان عند الملك والملك يصلى خلفه التراويح ويذاكره ويفيد منه فى الدين ، حتى رسخت فى قلبه محبته وعلت فى عينه منزلته فرد الشيخ إلى وطنه مكرماً مبجلاً.

التأثير فى بلاط الملك ورجال دولته :

ونشط الشيخ فى التأثير فى بلاط الملك ورجال دولته وجيشه وراسلهم وراسلوه وبايعه منهم كثير وأحبه أكثر ، وتأكدت الصداقة بينهم ، فكان الشيخ يكتب إليهم رسائل رقيقة مرققة تأخذ بمجامع القلوب وتهز النفوس ، وهى من أبلغ الرسائل وأعظمها تأثيراً فى القلوب ، يصور لهم غرابة الاسلام فى بلاده فيبكى ويبكى ، يقول فى رسالة : «واحزناه ، واحسرتاه ، وامصيبتاه ، إن اتباع محمد ﷺ ـ وهو محبوب رب العالمين ـ غرباء مهانون فى بلادهم وأعداؤه مكرمون ، إن الباطل بارز منصور ، وإن الحق مخذول مستور».

ويقول فى رسالة : «لقد أتى على الإنسان والمسلمين حين من الدهر فى هذه الديار ـ يعنى به عهد الملك أكبر ـ إذا عمل مسلم بحكم شرعى يسجن ويعاقب ويهان ويعذب ، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق ، لقد شمت بالمسلمين الأعداء وسخروا منهم ، وأصبحوا هدفاً لكل تجريح وإهانة».

ويستثير هم رجال الدولة المسلمين ويستنهضهم لخدمة الاسلام وإقالته من عثاره ، فيكتب إلى خانخانان ــ وهو قائد قواد الجيش والركن الأعظم للدولة ــ «إن ميدان البطولة الاسلامية لايزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الاسلام ، فهل تسبق إلى هذه السعادة وتحرز قصب السبق وتنصر هذا الدين المظلوم ، وتغضب لهذا الحق المهضوم ، وتبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون ، فحيهلا يا أهل الغيرة والفتوة ويا أهل الشهامة والمروءة» .

وهكذا يكتب إلى خان أعظم أكبر الأمراء فى عهد جهانكير والسيد فريد أحد الوزراء والمستشارين فى الدولة ، وقد نفذ بروحانيته فى قلوبهم وسيطر على عقولهم ، حتى كان يملى عليهم الأحكام كما يملى ملك البلاد ، فيمتثلون أمره وينفذون رغباته ، ويوجه الدولة وهو قاعد فى زاويته بسرهند توجيهاً دينياً بواسطة تلاميذه الروحيين وخدمه المخلصين الذين يديرون دفة الحكومة .

سمع مرة أن الملك جهانكير يفكر فى أن يجمع حوله جماعة من كبار العلماء الذين يشيرون عليه فى أمر الدولة ، واستعان بوزارته أن يختاروا له هؤلاء العلماء ، فحذرهم الشيخ من سوء العاقبة والوقوع فى ما وقع فيه الملك أكبر ، وتورطت بسببه الدولة الاسلامية فى الالحاد والكفر . فقال : إياكم أن تجمعوا حول الملك علماء السوء المتنافسين ، ورجال المادة الطامعين ، وقطاع الطريق ولصوص الدين ، فيفسدون فكرة الملك ويضرون الدين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ولكن اختاروا له صفوة من العلماء الذين تجردوا عن حب المال والجاه واخلصوا لدينهم أو اختاروا له رجلاً واحداً ممن يتقى الله ويخشاه من الراسخين فى العلم .

يتغير اتجاه الدولة وترجع الهند إلى الاسلام :

وظل الشيخ مثابراً على دعوته إلى وفاته (سنة ١٠٣٤هـ) حتى تغير اتجاه الدولة وتغيرت سيرة الملك ونفسيته ، وأصبحت الدولة تتقدم كل يوم من حسن إلى أحسن ، فخلف جهان كير إبنه شاهجهان وكان له فى الشيخ رأى جميل ومعه صلات طيبة . هذا هو الملك الذى لما جلس على عرش الطاؤس الذى كلفه ملايين من الجنيهات وكان تحفة فنية ، نزل عنه وخر لله ساجداً وقال : عجباً لفرعون جلس على عرش من الآبنوس فقال : أنا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أسجد لله شكراً وأقع له ساجداً مقراً بعبوديتى وضعفى وقدرته وكبريائه ، وبذلك تستدلون أيها السادة على تغير النفسية وتطور الدولة .

السلطان أورنك زيب من غرس الامام السرهندى :

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح أورنك زيب عالم كير وهو ممن عنى أولاد المجدد بتربيته وثقافته ، فنشأ متعبداً متبعاً للشريعة فقيها فى الدين غيوراً عليه ، حريصاً على تطبيق أحكامه وإصلاح المجتمع الفاسد وتقويم الحكومة الزائغة ، وكان الشيخ محمد معصوم إبن الشيخ أحمد السرهندى وخليفته مهتماً بتربيته ومستقبله ، يخاطبه فى رسائله «بناصر الدين ومعقل الشريعة» وقد طلب منه الأمير الشاب أن يرسل له من يربيه التربية الروحية ، فأرسل إليه إبنه الشيخ سيف الدين السرهندى يعلمه ويفقهه فى الدين حتى ظهرت فيه آثار الصلاح ، وبشر به الشيخ سيف الدين والده الشيخ محمد معصوم وأزال من قصره المنكرات .

مآثر أورنك زيب الاسلامية :

وأراد الله بالمسلمين فى الهند خيراً إذ كان أورنك زيب خليفة أبيه شاه جهان فى الامبراطورية المغولية ، فانتصر به الدين وعز المسلمون ، وهان الكفر ، وزالت المنكرات ، وبطلت المكوس الجائرة ، ووضعت الجزية على غير المسلمين ، ويذكر المؤرخون من استقامة أورنك زيب على الشريعة الاسلامية ومن عبادته وصلاحه ما يدهش رجال هذا العصر ، فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرش ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها ، وأمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للمملكة ، وألف له لجنة كبيرة من العلماء وكان يشرف على هذه اللجنة ويطلع على عملها يومياً ويقرأ قبل النوم كل ما كتب فى هذا الموضوع ؛ وهى الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية) ويواظب على الجمع والجماعات ، ويلتزم صلاة الجمة فى جامع دهلى وإن كان بعيداً عنه ، ويصوم ثلاثة أيام فى الأسبوع ويحيى ليالى رمضان بالتراويح ويخرج زكاة ماله ، وكان شديد الانكار على المنكر ، شديد المحاربة للبدع والغناء والمزامير ، وكان مع هذا التدين أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، وأوسعهم ملكاً وأعظمهم سلطاناً ، وأقدرهم على الادارة وأعلمهم بالسياسة ، وقد انقلبت به الحكومة المغولية من دولة ثائرة على الدين ثم دولة منحلة ، إلى دولة متمسكة بالدين محافظة عليه .

نجاح الامام السرهندى فى مهمته وأهدافه :

وهكذا استطاع رجل وحيد بقوة إرادته وصدق عزيمته ، وإيمانه القوى ومعرفته بقيمة نفسه ، واحتفاظه بقوته ، وإبائه من

أن ينفقها فيما لم تخلق له وما لا يعود على الاسلام بطائل ، وتجرده للدعوة ، وتركيزه جهوده كلها على إنهاض الاسلام من كبوته فى هذه الديار ، لقد استطاع هذا الرجل بهذا التوفيق ، أن يحدث انقلاباً فى الحكومة واتجاهها ، واستطاع أن يقضى على عقيدة وحدة الوجود التى تغلغلت فى أحشاء التصوف ، والأدب والشعر ، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة ، وعلى كثير من العقائد والأفكار والعادات التى تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة .

ضعف الحكم الاسلامى فى الهند :

ثم توالى على عرش الدولة التيمورية بعد أورنك زيب ملوك ضعاف من طراز الخلفاء العباسيين فى بغداد فى العهد الأخير لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ينصبون ويعزلون كالأطيار البالية ، واضطرب حبل الدولة وكثرت الفتن والمصائب ، وهكذا لم تعد الدولة مركز الحياة ولم يبق لها السلطان والقدرة على توجيه البلاد ـ حيث إذا صلح الملك صلحت الدولة وصلحت البلاد كلها ـ فليس مركز الملك الجالس على عرش دهلى مركز القلب فى الجسم إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، إنما هو صورة لا تنفع ولا تضر ، إذن فلابد من العناية بالشعب مباشرة بدل الحكومة ، والعناية بإصلاحه وتربيته وتثقيفه الاسلامى .

الامام ولى الله الدهلوى :

هنا قام الشيخ أحمد بن عبدالرحيم الدهلوى (م ١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولى الله ، وهو أحد حكماء الاسلام ونوابغه وكبار

المفكرين الاسلاميين . من طراز الامام الغزالى وشيخ الاسلام ابن تيمية . فلاحظ خمس نقط فى حياة الشعب الهندى .

خطته فى الاصلاح :

١ ـ إن كثيراً من المسلمين قصروا فى فهم (التوحيد الاسلامى) وأحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات والظنون الفاسدة والعادات الجاهلية . فلا بد منْ إبراز هذا (التوحيد) فى نقائه ووضوحه وشرح ما كان عليه أهل الجاهلية من اعتقاد فى الله حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الاسلام .

٢ ـ الشعب ليس له اتصال مباشر بالكتاب والسنة ، وقد حال العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه بعلة تعذر فهمه للعامة ، وخوف انحلال سلطتهم الروحية وسيادتهم العلمية ، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد ولم ينشروا كتب الحديث ، فلا بد إذن من نقل معانى القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد ، والاقبال على كتب السنة وحديث رسول الله ﷺ .

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفة ضئيلة فى العلوم الدينية ، وبضاعتهم مزجاة فى الحديث خصوصاً ، فلا بد من نشر علم الحديث ، فدرس الصحاح والموطأ ، وأقبل الناس على دراسة هذه الكتب حتى أصبحت للهند مكانة مرموقة فى العالم الاسلامى فى خدمة الحديث بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسه .

٤ ـ لاحظ أن العالم الاسلامى سوف يستقبل عصراً عقلياً وثورة فكرية ، فلابد من إيضاح الفكرة الاسلامية وجلائها ، وبيان

أسرار الدين وحكمه وأصول التشريع الاسلامى . ولابد من شرح نظام الخلافة فى الاسلام . وأساليب الاسلام وأسسه فى تنظيم الحياة والمجتمع . فألف كتباً لا تزال فريدة فى مكتبة الاسلام العامرة منها (حجة الله البالغة) و (إزالة الخفاء . فى خلافة الخلفاء) .

٥ ـ لاحظ أنه لا أمل فى نهضة الأسرة الملكية الهندية وتجديد شباب الدولة التيمورية . لأنه ـ كما قال ابن خلدون ـ «إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع» فلا فائدة فى بذل القوة لإصلاحها وتقويتها . ولابد من إعداد جماعة تحدث انقلاباً إسلامياً وتؤسس دولة إسلامية جديدة على أساس دينى علمى جديد .

نجاحه فى عمله :

قام الشيخ ولى الله وأصحابه بمهمة هذا التجديد الاسلامى خير قيام ، فنشروا العلم الصحيح وأذاعوا مصادر الدين الأولى وألفوا كتباً دسمة قوية مبتكرة تمهد العقول والنفوس لأحداث انقلاب إسلامى وإنشاء دولة إسلامية ، وخرج تلاميذ ورجالاً ، يقومون بهذه المهمة ، وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبدالعزيز الدهلوى (١٢٣٩هـ) فدرس وألف ، وخرج وخلف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول ، نشروا علم الحديث وشمروا عن ساق الجد فى نصر الدين ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة وتزكية النفوس ، حتى نفقت سوق الحديث وقامت دولة العلم ، واستعدت النفوس للنصر المؤزر للدين .

الامام أحمد بن عرفان الشهيد ورفقته وتأثيرهم فى الحياة :

وفى الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجرى قام السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد الذى تخرج على الشيخ عبدالعزيز ـ ومعه الشيخ محمد اسماعيل بن عبدالغنى بن الشيخ ولى الله الدهلوى ـ فدعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ، وحارب الشرك والجاهلية والبدع محاربة سافرة شديدة ، وبث فى الشعب روحاً دينية قوية لم تعهد من قرون متطاولة ، ودعا الناس إلى الإيمان والاحسان والتقوى والجهاد فى سبيل الله ، وقام بجولات واسعة فى الهند تاب فى خلالها ألوف من المسلمين ، وأقفرت الحانات وغصت المساجد ، وكسدت سوق البدع ، والتف حوله المخلصون والعلماء الربانيون وخرج للحج عام ١٢٣٦هـ ومعه أكثر من سبعماية رجل ، وتشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين فى هذا السفر ، وكان الناس يقصدونه من كل صقع ويدخلون فى الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى فى المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عدد كبير من الكفار ، وكان من تأثير مواعظه ودخول الناس فى الدين وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارة الخمر فى كلكته ـ وهى كبرى مدن الهند ومركز الانجليز ـ وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة لكساد السوق وتعطل تجارة الخمر .

وبعد الرجوع من الحج نادى الامام وأصحابه بالهجرة والجهاد فى سبيل الله ، فهان على المتصلين بهم بذل نفوسهم والهجرة من أوطانهم والتخلى عن أموالهم ، وتلقوا التربية الحربية ، ثم هاجروا مع إمامهم السيد أحمد ووزيره الشيخ إسمعيل إلى بلوجستان ومنها إلى

أفغانستان ، فحدود الهند الشمالية حيث حاربوا «السك» الذين كانوا قد احتلوا بنجاب وأذاقوا المسلمين سوء العذاب ، وهزموهم غير مرة وكذلك كل من وقف فى سبيلهم من أمراء الأفغان وهم يريدون أن يوغلوا فى الهند ويجلوا الانجليز ويؤسسوا دولة إسلامية تمتد من الهند إلى حدود أفغانستان ، وهكذا تتصل الدول الاسلامية بعضها ببعض حتى تكون سلسلة من حكومات إسلامية ، وأسسوا فعلاً دولة فى الأرض التى فتحوها وتقع فيها مدينة «بشاور» ، وطبقوا نظام الاسلام المالى والادارى تطبيقاً دقيقاً ، وظهر منهم من تنفيذ أحكام الشرع على أنفسهم وعلى غيرهم ومن الجمع بين العبادة والجهاد ، والأمانة والعدل والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والرحمة بالمسلمين والشدة على المحاربين من الكفار ما جدد ذكريات القرن الأول .

ولكن لم تشأ أهواء رؤساء القبائل الأفغانية ومصالحهم المالية أن تبقى هذه الحكومة التى تحكم بما أنزل الله وتفرض عليهم أحكام الاسلام المالية والقضائية ، فثاروا على عمالها وقتلوهم ركعاً وسجداً ، وهاجر بقية المجاهدين مع إمامهم إلى وادى «بالاكوت» فى طريقهم إلى كشمير التى كانوا يريدون أن يتخذوها مركزاً لنشاطهم ، وهنا حصلت آخر معركة بينهم وبين جيش عظيم من «السك» الذى اهتدى إليهم بدلالة بعض المأجورين من المسلمين ودهمهم ، وقتل الامام وكبار أصحابه ، وذلك سنة ١٢٤٦هـ واعتصمت البقية الباقية بالجبال ولم يزالوا قائمين على الحق ، مرابطين على الثغر ، مشمرين عن ساق الجد ، إلى آخر ساعة ، جزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء .

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركة نشر الحديث والدعوة إلى الكتاب والسنة ونبذ البدع والخرافات . بعد ما قام تلاميذ الامام ولى الله الدهلوى وانجاله وأحفاده بتدريس كتب الحديث ومحاربة البدع والعادات الجاهلية المحلية ، وقام السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد والعلامة محمد إسماعيل الشهيد بالدعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنية ، والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول وتحركت الهمم ، وكثر الدعاة إلى الدين والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنة ، والمؤلفون فى المقاصد الدينية ، فى اللغة الأردية الشعبية فى اسلوب سهل واضح .

ونشأت من هذه الحركة التعليمية الدعوية مدرستان تتفقان على الأساس وتختلفان فى المنهاج إحداهما مدرسة «صادق بور»[1] السلفية ، رائدها العلامة ولايت على العظيم آبادى من كبار خلفاء السيد الشهيد وأحد العلماء الربانيين فى الهند فى العهد الأخير ، وهى متشبعة بروح دعوة التجديد والجهاد التى قادها السيد الشهيد والعلامة الشهيد ، وهى تتسم بالجمع بين الدعوة وروح الجهاد والعمل بالحديث وتزكية النفس وعمارة الباطن ، على طريقة السيد الشهيد والامام ولى الله الدهلوى والمجدد السرهندى .

والثانية مدرسة للعلامة السيد نذير حسين الدهلوى (المتوفى ١٣٢٠م) وهو تلميذ الشيخ محمد اسحاق بن أفضل الدهلوى سبط

---

(١) صادق بور حي من أحياء مدينة «بتنه» عاصمة ولاية بهار كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد .

الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، وقد اشتغل بتدريس الحديث الشريف مدة طويلة ، ورحل إليه العلماء والأساتذة من أقاصى البلاد ، وتخرج عليه علماء كبار ، درسوا وألفوا فى الحديث ، منهم العلامة شمس الحق الديانوى ومولانا محمد بشير السهسوانى ، والحافظ عبدالمنان الوزير آبادى ، والعالم الربانى السيد عبدالله الغزنوى الأمرتسرى ، وإبنه السيد عبدالجبار الغزنوى[1] وآخرون كان شعارهم العمل بالحديث ، وعدم التقيد بالتقليد ، وتختلف درجاتهم وأساليبهم فى التمسك بهذا الشعار والدعوة إليه .

وينخرط فى هذا السلك المؤلف الكبير العلامة السيد صديق حسن القنوجى البهوبالى المتوفى (١٣٠٧) وهو معاصر للسيد نذير حسين الدهلوى وتخرج على تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوى والشيخ محمد إسحاق بن أفضل ، وعلى علماء الهند المحدثين ، وقد خدم علوم السنة بالتأليف والنشر وبذل الأموال الطائلة واحتضان العلم والعلماء .

ثورة الهنـد ورد فعلها :

وفى سنة ١٨٥٧م ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الانجليز ، ولكن اخفقت هذه الثورة وحلت الحكومة الانجليزية محل شركة الهند الشرقية فكان الأمر أشد . ودخلت الهند فى حكم بريطانيا المباشر ، وكونت الامبراطورية الانجليزية . فتسرب اليأس إلى نفوس المسلمين وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم . وضعفت

---

(١) وكانا أقرب إلى مدرسته السيد الشهيد من زملائهما الآخرين بالجمع بين العمل بالحديث والربانية الصافية والروحانية القوية .

روح المقاومة ، وهاجر كثير من العلماء ورجال الدين إلى الحجاز ، وأصبحوا يعتقدون أن الحكم الأجنبى فى الهند ضربة لازب ، وانبث دعاة المسيحية والقسس فى القرى والمدن يدعون إلى المسيحية علناً ويشنعون على العقيدة الاسلامية والشريعة المحمدية ، ويعلنون أن دولة الاسلام قد زالت وأن عهده قد انقضى ودخلت الهند فى الحكم المسيحى ، فليتهيأ المسلمون لاستقبال هذا الحكم وليقبلوا على دين الحكومة وطبقت الحكومة نظام التعليم المدنى وهو يهدف إلى تخريج طراز من الناشئة لا يصلح إلّا لإدارة جهاز الحكومة الانجليزية وتنفيذ برامجها ، وكثيراً ما كان أفراد الجيل الجديد ينسلخون عن الاسلام انسلاخاً كلياً ، ويثورون على الحضارة الاسلامية والديانة الاسلامية بتأثير التعليم والتربية فى مدارس الحكومة التى كان يديرها الانجليز أو أشباه الانجليز ، وبسبب «مركب النقص» الذى أصيب به المسلمون فى عصر الاحتلال ودهشة الفتح التى أصابتهم ، فأصبح المسلمون فى عقر دارهم يغزون سياسياً وثقافياً ودينياً وانقطع الأمل فى كل ثورة وانقلاب عسكرى .

معهد ديوبند وخدمته للدين :

ولم ير العلماء أمامهم طريقاً إلّا فتح المدارس العربية والمعاهد الدينية ، فأنشأوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الاسلامية وليكافحوا تيار الغرب المدنى والثقافى ، ويخرجوا منها دعاة الاسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين فليحفظوا على المسلمين دينهم ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم ، فأسس مولانا محمد قاسم النانوتوى (م

١٢٩٧هـ) (مدرسة ديوبند) سنة ١٢٨٣هـ ، وأسس مولانا سعادت على (مدرسة مظاهر العلوم) فى سبهارنفور فى نفس ذلك العام ، ثم تواترت المدارس الدينية فى أنحاء الهند ، وقد كان لهذه المدارس فضل كبير فى نشر الدين والدعوة الإسلامية ، وفى نشر الثقافة فى طبقات الشعب ، ومحاربة البدع والخرافات ، وبث الروح الدينية فى الجماهير ، وقد نجحت هذه المدارس فى رسالتها الدينية نجاحاً باهراً .

وكان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند وهو الشيخ أشرف على التهانوى (م١٣٦٢هـ) سهم كبير فى نشر العقيدة الصحيحة وإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق والدعوة إلى الله . وقد عمل وحده عمل مجمع علمى كبير ، وألف كتباً ورسائل تربو على ثمانمائة ، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً وأثرت فى المجتمع الهندى الاسلامى تأثيراً عظيماً .

سر نجاح هذه المدارس :

وسر نجاح هذه المدارس ــ كديوبند وشقيقاتها ــ فى أداء رسالتها ونشر الدين والعلم ، أنها لم تكن تنال مساعدة من الحكومة ، وكانت قائمة على أساس الزهد والتضحية والجهاد ، فأثار ذلك فيها روح المقاومة والجهاد ، وقوة العمل والنشاط ، ثم إن أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أمل ــ بطبيعة الحال ــ فى وظائف الحكومة والرواتب الضخمة ، لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة فألجأ ذلك أكثر المتخرجين إلى الانقطاع إلى الشعب دون الحكومة ، والتجرد للدعوة والخدمة دون المناصب والرواتب

وهكذا وجد دعاة متجردون محتسبون متطوعون يقتنعون بالكفاف وينقطعون إلى الدعوة والرسالة ، فقاموا بأعمال إصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة .

ندوة العلماء ومعهدها :

ولما رأى بعض العلماء أن الهوة قد اتسعت جداً بين التعليم المدنى والتعليم الدينى ، وحدثت بين المتخرجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجفوة تتسعان على مر الأيام حتى أصبح أولئك أمة وهؤلاء أمة . ولكل أمة لغة خاصة وثقافة خاصة ونفسية متميزة لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليم الدينى فى واد والعصر الحديث فى واد ولا جسر بينهما وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الدينى ثقافة أوسع ، وأسلوباً للدعوة أرقى وأقرب إلى نفسية هذا العصر ، واطلاعاً على ما تجدد من العلوم والأفكار والمسائل والحاجات ، أنشأ القائمون على ندوة العلماء ــ وفى مقدمتهم مولانا محمد على المونكيرى ــ مدرسة دار العلوم فى لكهنؤ سنة ١٣١٦هـ ، ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، والتصلب فى العقيدة والمبادىء ، والتوسع فى الجزئيات والوسائل ، وقد خرجت علماء ومؤلفين كانوا ملتقى الثقافتين وبرزخاً بين الطائفتين ، وقد ألفوا فى السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى كتباً هى خير ما ألف إلى الآن للجيل الجديد ، ولايزال كتاب «سيرة النبى» فى ستة مجلدات كبار للعلامة شبلى النعمانى (م ١٣٣٢هـ) وتلميذه الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوى[1] أعظم مؤلف فى

---

(١) توفى رحمه الله فى ١٣ من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ (١٦ نوفمبر ١٩٥٣م) .

السيرة النبوية وتعليمات الاسلام لا يوجد له نظير فى مكتبة الاسلام الحديثة ، ولا يزال لهذا المركز التعليمى نشاط وإنتاج .

حركة التبليغ وصاحب دعوتها مولانا محمد إلياس :

واختصر وازين حديثى هذا بذكر دعوة وحركة دينية قوية كان لى شرف الاتصال بها عن كثب لا عن كتب ، وشرف التعرف بمؤسسها ـ وبالأصح داعيها ـ وقد صحبته مدة ، ورافقته فى السفر والحضر ، فهذا لون جديد من الحديث ، وأريد أن أحدثكم أولاً عن صاحب هذه الدعوة فإن الفكرة تتضح كثيراً بمعرفة صاحبها ، وهنا أكرر لكم ما تحدثت به من محطة الاذاعة الهندية فى دهلى عن صاحب هذه الدعوة وتأثرى به ، وكان موضوع الحديث «رجال عرفتهم وأعجبت بهم» .

«فى سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠) خرجت مع رفيقين أطالع مشاريع التعليم والتربية ومراكزهما فى الهند ، وانتهت بى هذه الرحلة إلى دهلى ومنها إلى ميوات ، الرقعة التى هى مشهورة فى التاريخ باللصوصية والشطارة والنهب والغارة ، حتى كانت أبواب سور مدينة دهلى تقفل من بعد الغروب خوفاً من هؤلاء اللصوص ، فسمعت أنها مجال كبير لاصلاح دينى خلقى جديد ، ولما زرتها وجدت انقلاباً مدهشاً فى الأخلاق والنفوس ، تنقلت فى القرى والأماكن ، وتتبعت الأخبار ، فعلمت أن الناس الذين كان القتل عندهم أهون شىء ، وقد يقتلون الإنسان لأمر تافه ودرهم زائف ، صاروا الآن يحرسون الأموال والأعراض ويعفون عن المحارم ، رأيت فيهم إقبالاً على العلم وتواضعاً وحفاوة وضيافة ودماثة خلق وإيثاراً على النفس

وألفة ومودة لا توجدان فى هذا العصر المادى ، وعزوفاً عن الشهوات وصبراً على المشاق وإيماناً وصلاحاً ، وعلمت أن ألوفاً من الناس هناك تأثروا بهذا الاصلاح وانقلبت نفسيتهم إنقلاباً عجيباً .

هنالك فحصت عن منبع هذا الانقلاب فسمعت أن لا جمعية ، ولا جامعة ، ولا دعاية ، ولا صحيفة ، ولا كتاب ، إنما هو رجل متواضع فى دهلى ، قد بث الروح فى هذه الأمة المنحطة وهذب النفوس ونشر الدين والعلم ، وحدا بى الشوق إلى زيارته فجئت إلى دهلى فإذا هو رجل نحيف أسمر اللون ، قصير القامة ، كث اللحية تشف عيناه عن ذكاء مفرط وهمة عالية ، على وجهه مخايل الهم والتفكير والجهد الشديد ، ليس بمفوه ولا خطيب ، بل يتلعثم فى بعض الأحيان ويضيق صدره ولا ينطق لسانه ، ولكنه كله روح ونشاط وحماسة ويقين ، لا يسأم ولا يمل من العمل ولا يعتريه الفتور والكسل .

صحبت (مولانا محمد إلياس) مركز هذا النشاط الذى وصفته مدة طويلة ، ورافقته فى السفر والحضر ، فرأيت نواحى من الحياة لم تنكشف لى من قبل ، فمن أغرب ما رأيت يقينه الذى استطعت به أن أفهم يقين الصحابة ، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة والحقيقة ، وإيماناً بحقائق الاسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات والمحسوسات وبخواص الأشياء والأدوية ومضارها ومنافعها وبتجارب حياتنا ، فكان كل شىء صح فى الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لا يشك فيها ، وكأنه يرى الجنة والنار رأى عين .

ورأيته فى حالة عجيبة من التألم والتوجع والقلق الدائم ، كأنه على حسك السعدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفر العظيم وعن خالق هذا الكون ، ومن الاستهانة بقيمة الحياة وتضييعها فى غير محل ، ولا أجد له مثلاً إلّا كالذى يرى الحريق فى بيت وقد أحاطت النيران بأولاده وأسرته ونفائسه ، فيصرخ ويضطرب ولا يقر له قرار ، وعرفت برؤيته معنى الحب ، وفهمت ما روى عن العشاق والمتيمين ومن استولى عليه الحب ، وصدقت ما نقل عن الأنبياء من الحزن والقلق والحرص على الهداية .

ثالثاً وأخيراً رأيت فى هذا الجسم النحيل الذى كاد يعجز عن أن يحمل ثقله روحاً قوية جداً ، وقوة إرادة وقلب لم أجد مثلها فى الشبان الأقوياء والأبطال الأشداء ، فكان يتحمل من المشاق ما ينوء بالعصبة أولى القوة ، وقد يظل فى أسفاره أياماً متوالية لا يأكل فيها لشدة الاشتغال ويسهر ليالى ، وأعجب ما رأيت أنه كان فى مرضه الذى توفى فيه لا يستطيع القيام والقعود ، ولكنه يأتى إلى الصف يتهادى بين رجلين ويقوم للصلاة ولا يستقل بنفسه ، فإذا كبر الامام تركه الرجلان وقام بنفسه كأنه غير الرجل ويقوم ويركع ويسجد من دون مساعدة ، حتى إذا سلم الامام خارت قوته وعاد ضعيفاً لا يستطيع النهوض ، وبقى هكذا شهوراً وما فاتته فى مرضه صلاة إلى الليلة التى توفى فيها .

الدعـوة ومبادؤهـا :

هذا صاحب الدعوة ، وكلمة وجيزة عن الدعوة .

لقد رأى مولانا محمد إلياس ما أصاب المسلمين من التحلل والافلاس فى الإيمان والروح والشعور الدينى فى هذه المدة وما أثرت فيهم الحكومة الانجليزية ، والحضارة الغربية والتعليم المدنى ، وغفلة الدعاة ، والاشتغال الزائد بالحياة ، والانهماك بالمادة حتى صارت المدارس الشرعية . والأوساط الدينية كجزر فى بحر محيط ، وأصبحت تتأثر بمحيطها الثائر على الدين ولا تؤثر ، بضعفها وعزلتها عن الحياة ، فرأى أن التعليم وحده لا يكفى ، والاعتزال لا يفيد ، والانزواء لا يصح ، ولا بد من الاتصال بطبقات الشعب ، ولا بد من التقدم إليها من غير انتظار لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها فى الدين ، ويجب أن يبتدأ بغرس الإيمان فى القلوب ومبادىء الاسلام ثم الأركان والعلم والذكر ، مع مراعاة الآداب التى تقوى هذه الدعوة وتحفظها من الفتن ، منها إكرام كل مسلم ، ومنها عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعى وترك ما لا يعنيه ، وقد دعا إلى هذا النظام بكل قوته ونفوذه ، ودعا إلى الخروج فى سبيل هذه الدعوة وبثها فى القرى والمدن ، وبدأ دعوته بمنطقة هى أحط المناطق الهندية خلقاً وأبعدها عن الدين وأعظمها جهالة وضلالة ، وهى منطقة ميوات فى جنوب دهلى عاصمة الهند ، ودعا الناس فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم والخروج من أوطانهم لمدة محدودة قد تكون شهراً وقد تكون أكثر من ذلك ، وعرف أنهم لا يتعلمون الدين ولا يتغيرون فى الأخلاق إلّا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذى يعيشون فيه ، وقد قبل دعوته مئات وألوف من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً وقطعوا مسافات بعيدة ما بين شرق الهند وغربها وشمالها وجنوبها ركباناً ومشاة ، فتغيرت أخلاقهم ، وتحسنت

أحوالهم ، واشتعلت عواطفهم الدينية ، وانتشرت الدعوة فى الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ومساعدات مالية ونظم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة فى صدر الاسلام ، وتذكر بالدعاة المخلصين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون فى سبيل الدعوة والجهاد متاعهم وزادهم وينفقون على أنفسهم ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين .

وقد توفى إلى رحمة الله تعالى فى رجب عام ١٣٦٣هـ وخلفه نجله الشيخ محمد يوسف وقام بأعباء الدعوة خير قيام وفى عهده توسعت الحركة توسعاً كبيراً ، وانتشرت بعثاتها فى العالم الاسلامى وفى الغرب ، ودعا إلى الإيمان وإيثار الروح على المادة ، والآخرة على الدنيا ، والاعتماد على الله وبذل الوسع والطاقة فى سبيل الله ، دعوة قوية صريحة أثرت فى ألوف من الناس فأصبحوا دعاة متطوعين ، ولا يزال مقره «نظام الدين» فى دهلى مركز حياة دينية ودعوة إيمانية ، يؤمها الناس من جهات بعيدة[1] .

جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة :

هذا تاريخ الدعوة الاسلامية فى الهند باختصار وهذه مراحلها وأدوارها ووصفها الموجز ، وأنا أعتقد أن الدعوة فى حاجة دائمة إلى التجديد والتفكير ، والتطبيق بين الاسلام الخالد والعصر المتغير ، واستعراض الشئون والمسائل وما يطرأ على الحياة والعقول من الضعف والقوة ، والجدة والتطور . وأن العصمة لله وحده وأنه لم

---

(١) توفى مولانا محمد يوسف إلى رحمة الله تعالى فى ٢٩ ذو القعدة سنة ١٣٨٤هـ ، وخلفه الشيخ انعام الحسن الكاندهلوى حفظه الله ، والدعوة فى تقدم واتساع .

يختم شيء مما أكرم الله به هذه الأمة إلّا النبوة التي ختمت بمحمد ﷺ آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وأن كل ما ذكرنا نماذج ومثل للدعوة الاسلامية ، وأنماط لها وأساليب ، ومناهج وطرق يلهمها أصحاب النفوس الزكية فى مختلف العصور والبلاد ، أو يؤثرونها فى ضوء الكتاب والسنة .

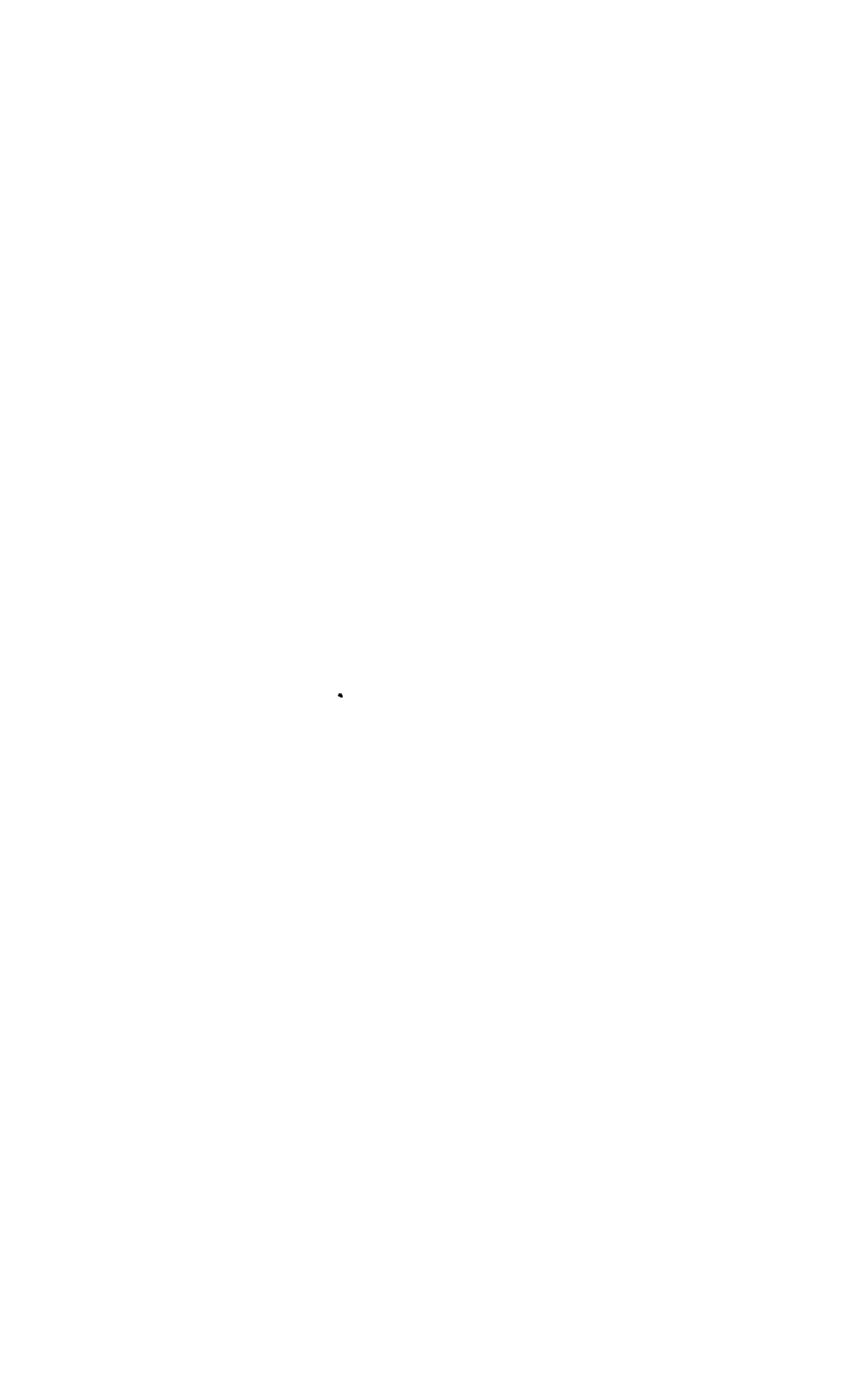
جهود اصلاحية وتربوية أخرى :

وقام رواد الاصلاح ومحبو نهضة المسلمين وعزهم بتجارب كثيرة فى مجال الدعوة إلدينية ، والتعليم والتربية الاسلامية ، ونشر الفكرة الصحيحة ، ومكافحة الغرب الثقافى ، والغزو الفكرى ، وإعادة الثقة إلى نفوس الشباب المتعلمين بالتعاليم الاسلامية ، والحضارة الاسلامية ، والتاريخ الاسلامى ، وإزالة العقد النفسية والفكرية ، بأساليب مختلفة وطرق شتى ـ فى ضوء تجاربهم ودراساتهم ـ تختلف فى النتائج والآثار وفى ضيق النطاق واتساعه ، وفى مدى تقبل المسلمين لها وانتفاعهم بها ، يطول الحديث فيها ، وتقصر هذه العجالة عنها ، وقد ألفت فى التعريف بهذه الجهود والمنظمات وأهدافها ونتائجها ، رسائل وكتب فى اللغة العربية . نحيل عليها ونشير على القارىء الذى يحب التوسع بمطالعتها .

وأنا أعتقد كذلك أن جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة ، ليست ملكاً لبلد دون بلد ولا احتكاراً فى شعب دون شعب ، بل هى بضاعة المخلصين فى كل بلد ، ونبراس المصلحين فى كل عصر ، يحق لهم أن يقولوا كلما أهديت إليهم ونقلت عن بلاد إلى بلادهم : «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .

الفصل الثالث

دور الجامعات الاسلامية المطلوب
في تربية العلماء وتكوين الدعاة ، وحماية الأقطار الاسلامية من التناقض والمجابهة



دور الجامعات الاسلامية المطلوب

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين . ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

سادتى الأجلاء . وزملائى العاملين فى مجال التعليم والتربية ، وإخوانى المعنيين بحاضر الأمة الاسلامية ومستقبلها ، ورسالتها وشخصيتها (١)

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التى لا تسنح إلّا بعد آجال طويلة ، للتحدث فى موضوع أعتقد أنه بالنسبة إلى الأمة الاسلامية والعالم الاسلامى . قضية حاسمة شديد الحساسية والخطورة ، وأومن باخلاص وفى حماس أنه إذا لم يكن لهذا الإلتقاء العلمى التعليمى الاسلامى العالمى الكريم قيمة ونتيجة فيه ، كان إلتقاءاً مباركاً حاسماً يملى تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمة الاسلامية بإذن الله تعالى . ويزيد هذا اللقاء قيمة ومكانة وجود عدد كبير أو أكبر عدد متيسر- إذا لم أكن مبالغاً أو متفائلاً أكثر- من أصحاب الاختصاص فى التعليم الاسلامى ، والأساتذة الكبار والمشرفين على الجامعات الاسلامية وقادتها وموجهيها ، ويحق لى لذلك أن أخاطب نفسى بما قاله الشاعر العربى القديم وأنشد :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى
فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

---

(١) اعدت هذه المحاضرة لمؤتمر تكوين الدعاة الذى انعقد فى القاهرة من ٢٠/٨- ٢٢/٨/١٤٠٧هـ .

الغاية الأولى والأساسية من التعليم :

أيها السادة ! وفقنى الله أن أقرأ كثيراً مما يتصل بالتعليم والتربية وغايتها المنشودة ، والفائدة التى يجب أن تجنى منها ، لكنى أكتفى بهذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة فيما يتعلق بتعريف العلم وتحديد غرضه لخبير تعليمى بريطانى معروف (Sir Prrcy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

«لقد سلك الناس مسالك مختلفة فى التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التى تسيطر عليها جميعاً : أن التربية هى الجهد الذى يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التى يؤمنون بها ، إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير فى التلميذ ، تلك القوى الروحية التى تتصل بنظرية الحياة ، وتربى التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمد يدها إلى الأمام»[1] .

إن هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروع وأجمع وأكثر تواطئاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التى بذلت فى سبيل التعريف بالتعليم والثقافة .

ما هى غاية التربية ؟ وماذا يراد من ورائها ، لماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم ، ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاء وعلى طريقة منظمة ، ألكى يوجد التعليم فجوة بين الأمة وبين ما تعتز به وتتبناه من معتقدات وأغراض ، وتراث حضارى وعلمى وتصورات ، سواء كان كل ذلك مما ينبغى الاعتزاز به أم لا ، لكن الشىء الذى

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند «التعليم»
(Education) The Encyclopedia Britannica.

تحبه ، والمعتقدات التى تعتز بها ، والتصورات والقيم والمثل والعقائد والأفكار التى تتغنى بها ، والتراث الذى توارثته من آبائها وأسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن يربط بين الأمة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة والنشء الجديد ، ذلك التراث الذى أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمة فى سبيله وحاربت وجاهدت وضحت بعزها وشرفها ومجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التى حاربت الأمة من أجلها قيماً صالحة أم لا ؟ لكن مسئولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمقه فى القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه وتتذوقه ، ولا يعود نابياً لديها أو جنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها ومحبوباً عندها ويصير طبيعة لها .

أمة محمد ﷺ أمة ممتازة فى خصائصها ومزاياها ، وصياغتها وعناصر تركيبها :

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطانى تعريف جامع جداً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمة عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها ، بل هى نابعة من الوحى الإلهى ، والكلام الإلهى ، والنبوة والرسالة ، والعلم اليقينى الغيبى الأزلى الذى لا يحول ولا يزول ولا يتغير قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسئولية وتتضخم .

فإذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه ــ من شعور أو من غير شعور ، عن قصد أو عن غير قصد ، عن خطأ أو عن خطة

مدبرة – ويزعزع جذور قيمهم فى قلوبهم . ويفكك عراها ويمزقها ويثير فى قلوبهم شكوكاً وشبهات لا تزول . وصراعاً نفسياً ، ويتجاوز هذا الصراع الافراد إلى الحياة الاجتماعية للأمة . ويتحول الصراع إلى حرب دامية شعواء بين تلك القيم والمفاهيم والتصورات والمعتقدات . والأفكار والعقائد . وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم وتلك الثقافة . فالأمر أدهى وأمر .

أيها السادة ! إنى لا أؤمن بالاسلام كتراث (Legacy) ولا أرى ذلك تعريفاً لائقاً بالإسلام : ولذلك فإنى لست معجباً بالكتب التى وضعت بعنوان : (Legacy of Islam) و (Heritage pf Islam إنى أرى الإسلام رسالة للحياة ، ولا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان ، وموجهاً له ، لا أراه مرافقاً للزمان فى رحلة الحياة بل أراه مرافقاً للزمان ومراقباً له ، فإذا كان هنالك مثقف بالتعليم العالى يقع فريسة الشك والارتياب فى جميع قيمه وتصوراته ومعتقداته ، أو يعود يراها دمى يسلى بها الصبيان والأطفال ، أو اسطورة يتعلل بها السذج والجهال ، أو يصبح لا يتحمس لها ، ولا يقاتل فى سبيلها ولا يدافع عنها ولا يغامر من أجلها إذا مست الحاجة إلى ذلك ، إذا كان ذلك فإن هذا التعليم عدو لدود لمن يحصله يجب أن يفر منه فرار الإنسان من الأسد بل أكثر من ذلك .

قضية البلاد الاسلامية أهم وأكبر خطراً :

أيها السادة ! وحين أتحدث إليكم فى هذا الحفل الكريم ، وفى

رحاب جامع الأزهر الشريف ، فإنى أخاطب العالم الاسلامى كله ، إن الأمر يصبح ذا خطورة وحساسية وتعقيد إذا كان يتعلق ببلد إسلامى ، تعيش فيه أمة ذات شخصية ، وذات خصائص ومميزات ، ذات دعوة ورسالة ، ومكلفة بقيام دور فريد فى العالم البشرى ، تنبع معتقداتها وقيمها ومثلها ، وتصوراتها وأفكارها ، ووجهات نظرها من الوحى الالهى ، فإذا كان التعليم يحدث صراعاً فى مثل هذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعد ما يتخرج فى جامعة عصرية ، ويصبح وكأنه أمة جديدة أو أمة أجنبية تبدو نابية قلقة بين الشعب المسلم ويحصل من ذلك كله تعقيد جديد ، وتحدث مشكلة جديدة ويحدث صراع مرير ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الاسلامية وآبائه وأمهاته ، وبين المجتمع الذى هو عضو فيه ، وبين تاريخه وتراثه ، وقيمه ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ومكانته التى حباها الله إياه ، وبين رسالة الاسلام والعمل الاسلامى ، وآمال الأمة الاسلامية وأحلامها ، إذا كان كل ذلك فإنى لا أرى فى هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمة للإنسانية ، بل إنه خيانة للأمة وجناية على الانسانية .

المسؤلية الأولية للجامعات فى بلد إسلامى :

ومعذرة إليكم فإنى لا أشير إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسئولين عن جامعة محدودة ، وإنما أتعرض لأمر مبدئى وأريد أن أقرر أن المسئولية الأولى والأهم والأقدم لجامعة تقوم فى بلد إسلامى ، هى أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التى تؤمن بها ، والحضارة

التى تحتضنها والدعوة والرسالة التى تتبناها ، والخصائص والمزايا التى تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجل عادى أو إيمان رجل الشارع بل يكون إيمان عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال : «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوف غربى ... وإذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة ، فإنه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل فى حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تسبب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمى ومنهجها العلمى ، ونظامها الادارى ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤم بعده للبلد الذى تقوم فيه الجامعة .

لابد من اطمئنان القلب والعقل معاً :

إن الغاية الأساسية للجامعات الاسلامية ، أن توجد الإيمان بتلك الأشياء التى أشرت إليها ، الإيمان الذى يأتى عن طريق العلم والثقافة والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة ، وإذا كان هناك رجل إنما يؤمن قلبه ولا يطمئن عقله ، وهو يعلل عقله ويسليه ، ويحاول أن لا يستيقظ عقله ، شأن الأمم غير المسلمة العديدة التى ترى بقاء دياناتها ورقيها فى عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظل أتباعها سادرين فى سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور والهواء ، ومن هنا وقع بين «الكنيسة» و «العلم» ذلك الصراع الدموى الذى تقرؤن قصته المؤلمة المفجعة فى كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between Religion & Science) للعالم الأمريكى المعروف

«درابر» (Johan William Draper وإنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى أن الخير كل الخير فى تبلد الشعور الإنسانى بل كانت تعمل فعلاً على تجميده وإماتته ، وكانت تؤمن بأن من الخير والسعادة أن يكون الإنسان محدود العلم قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، ومادام الحال على هذا المنوال ، كان الإيمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور فى المجتمع ، ذلك أن العهد العتيق كان يشتمل على كثير مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويفنده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة أن لا يتيقظ شعور المسيحى ، ولا يتفتح وعيه ولا يتسع أفقه ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقف فى وجه العلم لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، فأنشأت محاكم التفتيش الدينى العقائدى – (Courts of inquistion) وانتشرت فى ربوع العالم المسيحى وعواصمه ومراكزه ، ومنحت الحرية المطلقة فى محاكمة أصحاب النظريات العلمية والاكتشافات فى عالم الطبيعة والفلك والعلوم الطبيعية ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشية على معتنقيها ومعلنيها ، وقد أثبت بعض المؤرخين أن ضحايا هذه المحاكم يربو عددها على عدد المصابين والقتلى فى الحرب الكونية الأولى[1] ، وقد جرّ هذا الحجر العلمى والفكرى وفرض إطار خاص ودائرة محدودة من الدراسات وكتب المطالعة على الشباب والدارسين ضرراً كبيراً على مستقبل الدين وعقلية

---

(1) John Davenport Apology for Muhammad & The Quran'

الجيل الصاعد . وأحدث حركة رد فعل عنيفة ضد هذا الاحتكار العلمى والاستبداد الدينى والنظر الضيق المتزمت .

درس من تجارب الماضى :

وقد أثبت علم التربية وعلم النفس أن الحجر على الشباب فى القراءة والاطلاع . كالحجر على الأطفال القاصرين الذين لم يبلغوا سن الرشد . تجربة مخفقة وعملية مثيرة فيهم التساؤلات والشكوك ، والنهامة بالممنوع المحظور . وأن هذا الصنف من الدارسين غير جدير بالثقة فى مواجهة الأفكار الغربية والتحديات العلمية والعقائدية . إن المنهج التربوى المتزن السليم هو الاطلاع على وجهات النظر والمدارس الفكرية المختلفة مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين فى العلم والدين . مع مناقشتها وعرضها على المحك العلمى والدينى وتقرير الصحيح وتزييف الزائف . وذلك مما يتفق عليه خبراء التربية وأصحاب التجربة والاختصاص فى علم النفس وعلم الاجتماع .

يقول ا . وهتنى جريسولد A. Whitney Griswald فى كتابه مقالات حول التعليم Essays on Education :

«كانت عاقبة الرقابة والتعذيب . الفشل دائماً فى التاريخ ، إن أقوى سلاح وأنفذه لمكافحة الأفكار السيئة ، هو سلاح الأفكار الطيبة ، ولا تنبع الأفكار الطيبة إلّا من منبع الحكمة ، وليس هناك طريق أضمن لحصول الحكمة إلّا طريق التعليم الحر الذى لا عنف فيه» .

ويقول ثيودر شرويدر Theodope Schuoeder فى كتابه «العبودية العقلية» Intellectual Slavery :

«تساعد الرقابة على الاحتفاظ بمختلف أشكال الظلم ووقايتها ، وننخدع بهذه الوسائل ونحسبها ضماناً لحريتنا وديموقراطيتنا ، لكنها تحرمنا الفراسة التى نحتاج إليها فى الطريق الطبيعى للنمو الاجتماعى وعادة يجهل هذا الجهل الثورات أكثر دموية» .

واضطرت المسيحية أخيراً أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنه حاجة الإنسانية ، ومقتضاها الطبيعى ، وعاطفة الإنسان الداخلية ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشرى . جعله الله لكى يخضر وينمو ويورق ويثمر ، لا لكى يذوى ويذبل ويموت ، وهل تموت الحقائق ؟ على كل فإن العلم كسب المعركة وذاقت الكنيسة هزيمة وعاراً وشناراً منقطع النظير أمام العلم وتطلع الإنسان إليه وطلبه الجامح له .

تلك هى الكارثة المشؤمة التى وقعت فى العالم المسيحى ، ولكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم والعقل معاً وأن يساير الدين العلم ، ولا بد هنا يصفتى دارساً للتاريخ أن اعترف ـ مع الأسف ـ أن هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول فى بعض الدول الاسلامية ولو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقى حتفه ، لأنه يتنافى مع روح الاسلام وطبيعته ولم يدم هذا الصراع المصطنع فى العالم الاسلامى ، وإنما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منها .

مصير العلم مرتبط بالقلم :

أرى أن من واجبات الجامعات الاسلامية أن تحاول أن لا تقع فجوة بين العلم والدين كما وقعت بينهما فى العالم المسيحى ، أو فى دنيا الديانات التى لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل بل على غفلة من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصور ذلك فى الدين الذى أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلى :

﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] .

الدين الذى لم ينس هذا القلم المتواضع حتى فى الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربانية ، لم ينس أن يؤكد أن مصير العلم مرتبط بالقلم ، لم ينسه فى خلوة غار حراء التى ارتادها نبى أمى يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النبى الذى لا عهد له بالقلم ولم يعرف من ذى قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فن الكتابة والقراءة بتاتاً ، شيء لن يجد الانسان نظيره فى تاريخ العالم البشرى ، ولا يمكنه أن يتصور هذا المكان العالى ، لا يمكنه أن يتصور أن ينزل وحى على نبى أمى بين أمة أمية فى منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر ، فضلاً عن المدارس والمعاهد ودور التعليم والجامعات ، فى الوقت الذى لأول مرة تم فيه اتصال السماء بالأرض بعد قرون ، ولا يبتدىء

---

(١) سورة العلق الآية ١ ـ ٥ .

هذا الوحى بكلمة «أعبد» ولا بكلمة «صل» أو ما إليها من الكلمات المتجانسة . وإنما يبتدىء بكلمة «إقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ولا عهد له بها . لكى يقرر ويؤكد له أن الأمة التى يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هى أمة ليست ولوعاً بالعلم فحسب . بل ستكون معلمة العالم مولعة بنشره وتصعيده وترقيته . والعهد الذى تقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعلم . إنه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل . وعهد الظلمة والهدم والتخريب . وإنما هو عهد العلم والعقل والتفكير . وعهد النظر والحكمة . وعهد البناء والتعمير . وعهد حب الإنسانية . وعهد الرقى والتقدم .

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ فى تاريخ الديانات وتاريخ العالم أن الوحى الأول الذى نزل على النبى الأمى بين الأمة الأمية كانت بدايته بكلمة «اقرأ» : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾ كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب . فحاد عن الصراط المستقيم . فجاء الوحى الالهى الذى نزل على النبى الأمى يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب . لكى يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذى وهب النعمة الغالية ومن بها على عباده وهو الذى خلقه ، فلا يتقدم تقدماً متزناً إلّا تحت توجيهه وهدايته ، إن الآية التى نتحدث عنها ، إنها ذات ثورة وانقلاب عظيم فى التفكير والعقلية والنفسية ، قرعت الآذان البشرية فى بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره فى حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء والحكماء والفلاسفة والعلماء فى العالم البشرى عن مفتتح هذا الوحى الذى سينزل على النبى الأمى ،

لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمة التي نزل بينها الوحي ويعرف عقليته ـ ليقول إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» كان لهم أن يتنبأوا بكل شيء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم والقراءة والكتابة والورق ، مما دل على أن هذا العلم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات والكتب والمؤلفات والصحف ، وليد التجارب وليد الذكاء : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾ .

هذا الدين لن يفارق العلم :

مما يجب الانتباه له أن الوحي الالهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم ، لأن الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذى قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي ، ولا يجوز له أن يدعي أنه ممثل صحيح للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾ كيف ينبه الوحي الالهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هاد كامل ، وليس هو إلّا الله العليم الكريم ، لأن الرحلة طويلة شاقة ، معقدة خطرة ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار وأنهار ذات عمق سحيق ، وتتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة ، وحيات وعقارب سامة وكل حيوان ضار .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارة عن معرفة بالدمى واللعب ، وليس عبارة عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان

والإنسان والأمة والأمة ، وليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ولوك الكلمات بل هو : **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾** .

فهل رفع من قيمة القلم أحد فى التاريخ البشرى أكثر من ذلك ؟ حيث يذكر بهذه الأهمية ، وبهذا التمهيد الكريم ، فى خلوة غار حراء ، وفى الوحى الأول الذى ينزل من السماء ، ذلك القلم الذى ربما لم يكن بالامكان تواجده فى بيت من بيوت مكة ، لا أكاد أدرى لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا ، ربما وجدتموه فى بيت ورقة بن نوفل ، أو أى رجل تعلم الكتابة فى ديار العجم ، القلم الذى ربما لا تجدون ذكره فى دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات وأعدتم القراءة .

عصارة كل علم وثقافة :

﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ :

ثم دل على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم ، وهى أن العلم لا حد له ولا نهاية ، فقال : **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** ، وليس العلم الحديث (SCIENCE) إلّا إنعكاساً لـ **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** ، وكذلك التكنولوجيا ليس إلّا مظهراً لـ **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** ، وينزل الإنسان على القمر ، ولا يعنى ذلك إلّا **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** ويغزو الفضاء ، ويطوى أرجاءه طياً ، ويسخر أشعة الشمس ويشق طريقه بين النجوم والكواكب ويحلم بالنزول بين السماكين ، إن كل ذلك ليس إلّا عبارة عن **﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾** .

على كل فإن الأمة التى كان أساسها الأول على القراءة ، وخاطبها الوحى الإلهى الأول بذكر القلم ، إن تلك الأمة لن تفارق العلم والمعرفة ، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم .

ثم يجب أن يكون فى الاعتبار لدى إنشاء كل مدرسة أو جامعة أو اتخاذ منهج تعليمى لتعليم هذه الأمة ، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التى آمنت بها من ذى قبل ، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معاً ، ولا يكفى اطمئنان القلب أو العقل فقط ، لأنه حينئذ سيحدث صراع بينهما فى الحياة الفردية للإنسان ، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية .. وعلى ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه ، ويتصارع مع دينه وعقيدته ، وتضيع كل القوى فى إزالة «الأنقاض» فقد رأى بعض قادة بعض الشعوب والبلاد الإسلامية أنه يجب أولاً إزالة الأنقاض ، وركزوا كل عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد والحقائق ، واستنفذت هذه العملية كل قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكنوا من عرض دعوتهم ونشر رسالتهم ، وزرع أفكارهم التى كانوا بصدد نشرها .

فإذا كان هناك منهاج تعليمى يعمق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التى تحتضنها فهو منهاج موفق ، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذى جاء يحمل رسالة ويحتضن دعوة ، فيجب أن يكون منهاجنا التعليمى والثقافى بحيث يرسخ الإيمان فى قلب المثقف وقلب الدارس وقلب الطالب الجامعى ، وقلب الفيلسوف وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعاً توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العملية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر

البسيطة فى تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة .

أيها السادة ! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك فهى الجامعة التى تستحق أن تسمى جامعة إسلامية ، وأعتقد أن ذلك خير تعريف لها .

حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف :

وعلى حملة علوم الدين وأصحاب الرسوخ والاختصاص فيها من المتخرجين فى الجامعات الاسلامية والمدارس الدينية ، وعلى الدعاة ، عهدة صيانة الاسلام عن التحريف والمسلمين عن الانحراف ، والحفاظ على الدين ، والذب عن حوزته ، ويحتاجون من أجل القيام بذلك إلى الصفات الدقيقة السامية المثالية ، والقوة الروحية الداخلية ، والثقة بخلود الدين ، والغيرة عليه ، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والاسلام والإشراك والتوحيد والسنة والبدعة ، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[1] ، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين للدين فى عصور مختلفة[2] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله فى نشر دين من الأديان ، ولذلك فإن هذا الواجب وضع على عاتق العلماء ، ونائبى الرسول

---

(١) والتفصيل فى رسالتنا : «دور الحديث فى تكوين المناخ الاسلامى وصيانته» ، فليراجع ، طبع المجمع الاسلامى العلمى ندوة العلماء الكهنؤ ـ الهند .

(٢) ليرجع إلى سلسلة «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام» طبع دار القلم الكويت ١ ـ ٤ .

ﷺ ، وخص به العلماء الربانيون المتفقهون فى الدين الغيارى عليه المميزون بين الاسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التى تعرضت لتحريفات المحرفين وأغراض المغرضين ، وقد جاء فى حديث صحيح : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[٣]» .

وما كانت لتجرى هذه الكلمات العميقة المعانى ، والدقيقة الدلالات إلّا على لسان نبى مرسل مصدوق ، فلو قرأتم تاريخ الاصلاح والتجديد فى الإسلام ، والمساعى والمجهودات التى قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدين لوجدتم جميع الجهود المبذولة فى سبيل الحفاظ على الدين تأتى تحت هذه العناوين الثلاثة ، إن للكلمات أعماقاً وآفاقاً هى أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرجال وتحد بحدود النماذج والأمثال .

ومن واجبات العاملين فى مجال الدعوة الاسلامية هو صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الاسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التى نشأت فى أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهى خاضعة دائماً للتطور والتغيير فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الاسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض الكرامات ، بل أكثر منها وأشد ، لأنها حصون الاسلام المنيعة وحماه وشعائره ، وإخضاعها للتصورات

---

(٣) مشكاة المصابيح ، نقلاً عن البيهقى الفصل الثانى ، ص/٢٦ .

الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، ونزول بها إلى المستوى الوطنى المنخفض لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس .

العناية بتربية السيرة :

والوظيفة الثانية للجامعات هى تربية السلوك والسيرة ، حتى يكون المتخرجون فيها قدوة للعلماء والدعاة فضلاً عن أفراد الأمة وأحاد الناس ، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها بنفسه عن أن يبيع ضميره «بحفنة من شعير» إن الفلسفات والنظم المضادة للإسلام ترى أن إنسان اليوم يمكن شراؤه فى السوق بقيمة أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية منها ... وسر النجاح الحقيقى لجامعة ما أن تربى السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأى قيمة مها كانت رفيعة غالية ، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة ، أو حكومة ذات سياسة خاطئة ، أو قوة مدمرة ، مهما كانت لبقة ذات دهاء ، أن تشتريهم بأى ثمن غال ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال :

«نرى العنقاء أكبر أن تصادا» .

يقول الدكتور محمد إقبال :

«إن حرية القلب هى سيادة وسلطان ، أما العناية الزائدة بالبطن فهى مدعاة للموت ، والخيار بيديك ، فإما هذا وإما ذاك» ، يا أيها الطائر اللاهوتى ! (يخاطب الإنسان المسلم) أعلم أن الموت خير من القوت الذى يقصر جناحك ويمنعك من التحليق» .

من عوامل التأثير فى المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات :

ويحلو لى أن أنقل هنا قطعة من كتابى : «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام (الجزء الأول)» بمناسبة الحديث عن زهد الإمام أحمد بن حنبل وتوكله على الله وعزوفه الزائد عن أموال الحكومة وعطاء الخليفة والأمراء :

«وقد رأينا الزهد[1] والتجديد مترافقين فى تاريخ الاسلام : فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة فى المجتمع الاسلامي أو افتتح عهداً جديداً فى تاريخ الاسلام ، وخلف تراثاً خالداً فى العلم والفكر والدين ، وظل قرونا يؤثر فى الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلّا وله نزعة فى الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطر على المادة ورجالها ، ولعل السر فى ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ فى الأمم ، كانوا زهاداً فى الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء فى زمانهم ، ولأن الزهد يثير فى النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب» ،

---

(١) ليس المراد به الزهد الأعجمى أو المسيحى الرهبانى ، فلا رهبانية فى الاسلام ولا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات ، إنما المراد به سمو النفس والنظر ، والزهد فى زخارف الحياة وفضولها وكمالياتها ، والتهافت على حطام الدنيا ، والتنافس فى الجاه والمنصب .

روح التضحية والفداء :

والمسئولية الثالثة للجامعات الاسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة ، ويستعدون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والرى والتنعم والتمتع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيرة ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية ، والرصيد العلمي والفكرى الذى زودتهم به جامعاتهم ، فى رفع رأس الأمة عالياً وفى أعلاء كلمة الله ، وفى صنع أمة ذات رسالة ، وبناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب .

فهذان أمران لا بد منهما : الأمر الأول أن توفر الجامعات الاسلامية غذاء يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق فى وقت واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنب وبتعاون متبادل ، إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التى آمنت بها الأمة .

تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة فى الدراسة والتحقيق :

ولا بد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوى القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست فى كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنها نظرية بالية قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة فى كثرة أبنائه الذين يثبتون تميزهم واختصاصهم فى علم من العلوم وفى مجال من مجالات البحث والتحقيق ، ويقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثقافة ، وتثقيف الأمة والشعب ،

ورفع معنويات أمتهم . وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبى ، وفى كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين والعلم والأمة والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ورقيهم الشخصى عرض الحائط ، وذلك هو المقياس الحقيق الأصيل ، الذى يقاس به البلد والأمة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد فى الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلد قيمة إلّا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدم الشخصى ، ويتوفرون على العمل الجاد البناء ، وعلى العمل العلمى الإيجابى النافع ، على رفع مستوى الأمة عُقلياً وفكرياً ، وعلى التوصل إلى نظريات علمية ذات أهمية ، وعلى بحث علمى مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحى .

إن قيمة الشعوب والأمم ـ فضلاً عن قيمة الجامعات والمؤسسات ـ وسر عظمتها وما تستحق به من إجلال وإكبار ، وتقدير واعتراف ، وجود أصحاب تفوق واختصاص وشهرة عالمية ، فى علوم وآداب ، ومجالات علمية ، وبحوث واكتشافات جديدة ، وهذه كانت ميزة الأمة الإسلامية فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية نحواً من ألف سنة على الأقل[١] ، باقرار من المؤرخين الأوروبيين .

---

(١) إذا اعتبرنا القرن الثانى الهجرى ـ وهو زمن الحكم الأموى الواسع ـ بداية تأثير المسلمين العلمى الفكرى فى الشعوب والبلاد المتحضرة التى كان يحكمها المسلمون ، وسلمنا استمراره إلى القرن الحادى عشر الهجرى ، فقد نشأت الحركة الانتقالية فى أوربا **Renaissance** فى القرن الرابع عشر المسيحى ، وانتشرت فى القرن السابع عشر المسيحى (الحادى عشر الهجرى) وتميزت بازدهار الأدب والفن بانبلاج فجر العلم الحديث فى الغرب المسيحى .

ومن واجبات المتخرجين فى جامعاتنا النابغين أن يهيؤا بديلاً عن كتب المستشرقين وعلماء الغرب فى التاريخ الاسلامى وفى تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى والعلوم الاسلامية ، كالحديث والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى ، التى اعتبرت مرجعاً فى هذه المواد ، وقررت فى كثير من الجامعات العربية والاسلامية واعتمد عليها كثير من أساتذتها ومن الباحثين فى هذه الموضوعات وأصحاب رسائل الدكتوراة ، فبثت السموم فى عقول كثير من الدارسين والباحثين الناشئين ، وأنشأت شبهات حول الاسلام والمصادر الاسلامية وأحدثت فى نفوسهم يأساً عن مستقبل الاسلام ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لها سهماً كبيراً فى الحث على «إصلاح الديانة وإصلاح القانون الاسلامى»[1] وليكن للبلاد الاسلامية والشعوب المسلمة اكتفاء ذاتى فى الثقافة والتربية كما يجب أن يكون لها استقلال فى مجال السياسة والاقتصاد .

تلك هى أهداف حقيقة يجب أن نصبو إليها ، ونضعها فى اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أما مجرد التعليم والتثقيف ، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ويستخرج الاعجاب .

(١) ليرجع التفصيل إلى بحث الكاتب بعنوان «المستشرقون ، نفوذهم فى ميدان التفكير ، فى كتابه «الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية» ص ١٨٧ ـ ١٩٨ الطبعة الرابعة دار القلم ـ الكويت .

الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفخ روح الإيمان واليقين فى الحياة والمجتمـــع :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التى قامت فى هذا العهد العصيب ، وفى هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذى يسود جميع الدول الاسلامية منذ مائة عام تقريباً ... تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكرى والحضارى الغربى ، وحدث صراع نفسى وفكرى استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة ... ان ذلك الوضع غير طبيعى يجب أن يزول فى أقرب وقت ، لكى تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة وإلى إنقاذ البلد ودفع عجلته إلى الأمام .

الحقيقة أن الأدب والشعر ، والفنون الجميلة والحكمة والفلسفة ، والتأليف والتصنيف ، ليس من وراء كل ذلك إلّا غرض واحد ، وهو أن تتولد فى صاحبه حياة جديدة ، وإيمان جديد ، وبالتالى فى الأمة التى هو عضو فيها والمجتمع الذى هو جزء منه .

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال وهو يخاطب الأديب والشاعر ، لأنه ينطبق على الوضع الذى نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق ! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أى قيمة للنظر الذى لا يدرك الحقيقة ؟ لا خير فى نشيد شاعر ولا فى صوت مغن ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله فى نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلّا الفتور والخمول

والذوى والذبول» .

إن الأوضاع التى نمر بها نحتاج فيها إلى أن نأتى بأعجوبة ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقق إلّا عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنها وحدها التى تجعل حاملها يصنع المعجزات ويأتى بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطم المعايير التقليدية ، ويسخر من كل الموازين التى آمن بها العالم الغربى الجاهلى ، يقول الدكتور محمد إقبال :

أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعى ، ولكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر والبحر ، وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها فى خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات» .

دور مصر الاسلامية القيادى فى العالم الاسلامى :

إن مصر الاسلامية اليوم بفضل ما سجل لها التاريخ من دور رائع فى إنتاج عدد كبير من المؤلفين والمحققين ، والمحدثين والمؤرخين ، والقادة والمجاهدين ، وما قامت به من دور حاسم فى الحروب الصليبية[1] والغزو التتارى[2] ، وما تملكه من وسائل

(١) ذلك عن طريق حاكم مصر وقائدها الملك الناصر السلطان صلاح الدين الايوبى ، وانتصاره فى معركة حطين الفاصلة فى ١٤/ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، واستعادته بيت المقدس للمسلمين (بعد نحو تسعين سنة من استيلاء الصليبيين عليه) فى ٢٧/رجب ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، وصلح الرملة فى سنة ١١٩٢ المسيحى .

(٢) إشارة إلى انتصار سلطان مصر المملوكى المظفر سيف الدين قطز ، وقائده ظاهر بيبرس البنقداوى فى معركة عين جالوت فى رمضان ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وانهزام التتر انهزاماً عديم المثال غير مجرى التاريخ ، وأعاد الثقة إلى المسلمين ، فقد كان من الأمثال السائرة ومن المسلمات التى لا تقبل الجدل (إذا قيل لك أن التتر قد انهزموا فلا تصدق) .

النشر والتصدير ، والقيادة فى العلم والأدب ، وبفضل وجود الأزهر الشريف ، تحتاج بصفة خاصة إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر أو البحر ، لأن عليها تعود مسئولية بعث الدول العربية كلها بعثاً جديداً ، إن عليها أن تنفخ روحاً جديدة فى البلاد العربية الاسلامية ، وتوجد لديها ثقة جديدة ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفاقاً جديداً ، يتحرق على بؤس الإنسانية وشقائها ، وشجاعة جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة فى هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التى تزل أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثر عقولها ، وقد كانت مهد الانتفاضة الاسلامية والدعوة القوية إلى الصحوة الاسلامية الشاملة حين ساد الجمود والخمود على كثير من الأقطار العربية ، ولا يزال لها جوهر إسلامى نقى يبرز لامعاً صافياً إذا نفض الغبار عنه .

والحمد لله رب العالمين .

مباحث الكتاب

الموضـــوعات **الصفحـة**



صدر من هذه السلسلة

١ — تأملات في سورة الفاتحة — الدكتور حسن باجودة
٢ — الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه — الأستاذ أحمد محمد جمال
٣ — الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين — الأستاذ نذير حمدان
٤ — الاسلام الفاتح — الدكتور حسين مؤنس
٥ — وسائل مقاومة الغزو الفكري — الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ — السيرة النبوية في القرآن — الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ — التخطيط للدعوة الاسلامية — الدكتور محمد علي جريشة
٨ — صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية — الدكتور أحمد السيد دراج
٩ — التوعية الشاملة في الحج — الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ — الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره — الدكتور عباس حسن محمد
١١ — لمحات نفسية في القرآن الكريم — د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ — السنة في مواجهة الأباطيل — الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ — مولود على الفطرة — الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ — دور المسجد في الاسلام — الأستاذ محمد علي مختار
١٥ — تاريخ القرآن الكريم — الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ — البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام — الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ — حقوق المرأة في الاسلام — الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ — القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١] — الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ — القراءات أحكامها ومصادرها — الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ — المعاملات في الشريعة الاسلامية — الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ — الزكاة فلسفتها وأحكامها — الدكتور علي محمد العماري
٢٢ — حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم — الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣ — الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ — الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر — الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ — الاسلام والحركات الهدامة — معالي عبد الحميد حمودة

العنوان	المؤلف
٢٦ــ تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧ــ مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨ــ وحي الله	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩ــ حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠ــ المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣٢ــ الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج	الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣ــ الاعلام في المجتمع الاسلامي	الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤ــ الالتزام الديني منهج وسط	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
٣٥ــ التربية النفسية في المنهج الاسلامي	الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦ــ الاسلام والعلاقات الدولية	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧ــ العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨ــ معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها	الدكتور محمود محمد بابللي
٣٩ــ النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	الدكتور علي محمد نصر
٤٠ــ من التراث الاقتصادي للمسلمين	الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١ــ المفاهيم الاقتصادية في الاسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢ــ الأقليات المسلمة في أفريقيا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣ــ الأقليات المسلمة في أوروبا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤ــ الأقليات المسلمة في الأمريكتين	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥ــ الطريق إلى النصر	الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦ــ الاسلام دعوة حق	الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧ــ الاسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨ــ دحض مفتريات	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩ــ المجاهدون في فطاني	الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠ــ معجزة خلق الانسان	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١ــ مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢ــ ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي	الأستاذ أنور الجندي
٥٣ــ الشورى سلوك والتزام	الدكتور محمد أحمد البابلي
٥٤ــ الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أسماء عمر فدعق
٥٥ــ مدخل إلى تحصين الأمة	الدكتور أحمد محمد الخراط

٥٦ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٣] ــ الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ــ كيف تكون خطيباً ــ الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ــ الزواج بغير المسلمين ــ الشيخ حسن خالد
٥٩ــ نظرات في قصص القرآن ــ محمد قطب عبد العال
٦٠ــ اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات ــ الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ــ بين علم آدم والعلم الحديث ــ الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ــ المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان ــ الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ــ من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢] ــ الدكتور رفعت العوضي
٦٤ــ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد ــ الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥ــ لماذا وكيف أسلمت [١] ــ الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦ــ أصلح الأديان عقيدة وشريعة ــ الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧ــ العدل والتسامح الاسلامي ــ الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٤] ــ الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩ــ الحريات والحقوق الاسلامية ــ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠ــ الانسان الروح والعقل والنفس ــ الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١ــ كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية ــ الدكتور شوقي بشير
٧٢ــ الاسلام وغزو الفضاء ــ الشيخ محمد سويد
٧٣ــ تأملات قرآنية ــ الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤ــ الماسونية سرطان الأمم ــ الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥ــ المرأة بين الجاهلية والاسلام ــ الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦ــ استخلاف آدم عليه السلام ــ الدكتور علي محمد نصر
٧٧ــ نظرات في قصص القرآن [٢] ــ محمد قطب عبد العال
٧٨ــ لماذ وكيف أسلمت [٢] ــ الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩ــ كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا ــ الأستاذ سراج محمد وزان

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة